

البيوت

عناصر الموضوع

٦٢	مفهوم البيوت
٦٣	البيوت في الاستعمال القرآني
٦٤	الألفاظ ذات الصلة
٦٨	البيوت نعمة
٧٧	أنواع البيوت
٩٤	الخروج من البيت ابتغاء مرضاة الله
١٠٣	آداب دخول البيوت
١١٠	البيوت والفتنة
١١٥	البيوت والعذاب
١١٨	النساء والبيوت

مفهوم البيوت

أولاً: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «بيت) الباء والياء والتاء أصل واحد، وهو المأوى والمآب ومجمع الشمل، يقال: بيت وبيوت وأبيات^(١)». والبيت سمي بيتاً؛ لأنه يبات فيه ليلاً^(٢). قال الراغب: «أصل البيت: مأوى الإنسان بالليل؛ لأنه يقال: بات: إذا أقام بالليل، كما يقال: ظل بالنهار، ثم قد يقال للمسكن: بيت من غير اعتبار الليل فيه، وجمعه: أبيات وبيوت، لكن البيوت بالمسكن أخص، والأبيات بالشعر»^(٣).

ثانياً: المعنى الاصطلاحي:

عرفه ابن العربي بقوله: «كل ما علاك فأظلك فهو سقف، وكل ما أقلك فهو أرض، وكل ما سترك من جهاتك الأربع فهو جدار، فإذا انتظمت واتصلت فهو بيت»^(٤). وقال القرطبي: «البيت سمي بذلك؛ لأنها ذات سقف وجدار، وهي حقيقة البيئية، وإن لم يكن بها ساكن»^(٥).

وعرفه إسماعيل حقي بقوله هي: «اسم مبنى مسقف مدخله من جانب واحد، بنى للبيتوتة سواء كان حيطانه أربعة أو ثلاثة»^(٦).

وعرفه ابن عاشور بقوله: «البيت: اسم جنس للمكان المتخذ مسكناً لواحد، أو عدد من الناس في غرض من الأغراض، وهو مكان من الأرض يحيط به ما يميزه عن بقية بقعته من الأرض ليكون الساكن مستقلاً به لنفسه، ولمن يتبعه فيكون مستقراً له، وكناً يكتنه من البرد، وساتراً يستتر فيه عن الناس، ومحطاً لأثائه وشؤونه»^(٧).

(١) مقاييس اللغة ١/٣٢٤.

(٢) انظر: تهذيب اللغة، الأزهرى ١٤/٢٣٨.

(٣) المفردات ص ١٥١.

(٤) أحكام القرآن ٣/١٤٨.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ٦/٣٢٥.

(٦) روح البيان ٤/٤٨٣.

(٧) التحرير والتنوير ١/٧٠٨.

اليوت في الاستعمال القرآني

ورد (اليوت) في القرآن الكريم (٦٣) مرة^(١).
والصيغة التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
مفرد	٢٦	﴿وَإِذْ جَعَلْنَا آيَاتٍ مَّتَابَعًا لِلنَّاسِ وَأَمَّا﴾ [البقرة: ١٢٥]
جمع	٣٧	﴿أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ﴾ [النور: ٦١]

وجاءت اليوت في القرآن على ثلاثة أوجه^(٢):

- الأول: المكان المعد للمبيت، ويشمل المنزل والخيمة وغيرها، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١]. أي: منازل.
- الثاني: المسجد: ومنه قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمَاءُ﴾ [النور: ٣٦]. أي: مساجد.
- الثالث: الكعبة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا آيَاتٍ مَّتَابَعًا لِلنَّاسِ وَأَمَّا﴾ [البقرة: ١٢٥]. أي: جعلنا الكعبة.

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص ٣٤٧-٣٤٨.

(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ١٩٦/٢-١٩٧، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص ٢٠٧.

الألفاظ ذات الصلة

١ المنزل:

المنزل لغة:

موضع النزول، وهو الحلول، تقول: نزلت نزولاً ومنزلاً؛ ويطلق المنزل على المنهل والدار^(١)، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أُنزِلْنِي مُنزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٩].

المنزل اصطلاحاً هو:

اسم لما يشتمل على بيوت وصحن مسقف ومطبخ ليسكنه الرجل بعياله^(٢)، وهو عند الفقهاء دون الدار وفوق البيت، وأقله بيتان أو ثلاثة^(٣).

الصلة بين البيت والمنزل:

أن البيت أخص من المنزل، والمنزل أعم من البيت.

٢ الدار:

الدار لغة:

المحل الذي يجمع البناء والعروة، وهو من دار يدور؛ لكثرة حركات الناس فيها^(٤)، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينًا﴾ [الأعراف: ٩١].

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥].

الدار اصطلاحاً:

هو اسم لما اشتمل على بيوت ومنازل وصحن غير مسقف^(٥).

الصلة بين البيت والدار:

أن الدار أشمل من البيت والمنزل لاشتمالها عليهما^(٦).

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٦٥٦/١١، المصباح المنير، الفيومي ٢٠٦/١، تاج العروس، الزبيدي ٤٧٨/٣٠.

(٢) انظر: آيس الفقهاء، القونوي ص ٧٨.

(٣) انظر: المغرب في ترتيب المعرب، الخورازمي ص ٤٦١.

(٤) انظر: المحكم، ابن سيده ٤١٨/٩، لسان العرب، ابن منظور ٢٩٨/٤.

(٥) انظر: الكليات، الكفوي ص ٢٣٩.

(٦) انظر: دستور العلماء، القاضي نكري ٦٩/٢.

٢ المسكن:

المسكن لغة:

مكان السكنى، والموضع الذي يسكن فيه ^(١)، كما يطلق المسكن: على المنزل والبيت ^(٢)، ومنه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ [سبأ: ١٥].

المسكن اصطلاحاً:

هو البيت سواء كان بناء، أم خيمة، أم غير ذلك ^(٣).

الصلة بين البيت والمسكن:

أن المسكن هو البيت الذي يسكن فيه الإنسان إلا أن المسكن فيه معنى الإقامة والاستيطان والاستقرار بالمكان ^(٤).

٤ المأوى:

المأوى لغة:

المكان ^(٥)، قال الجوهرى: «المأوى كل مكان يأوي إليه شيء ليلاً أو نهاراً» ^(٦)، ومنه قوله تعالى: ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ [النجم: ١٥].

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: ٣٩].

المأوى اصطلاحاً:

هو كل مكان يأوي إليه شيء، ويكون ملجأ للشخص ومستراحاً يستريح إليه من الحر والبرد ^(٧).

الصلة بين البيت والمأوى:

أن البيت هو محل المأوى الذي يأوي إليه الإنسان ويجمع شمله بمن أوى إليهم.

(١) انظر: جمهرة اللغة، ابن دريد ٨٥٦/٢.

(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٢١٢/١٣، المصباح المنير، الفيومي ٦٧/١.

(٣) انظر: القاموس الفقهي، سعدي أبو جيب ص ٤٣.

(٤) انظر: معجم لغة الفقهاء، محمد قلعجي وحامد قنبي ص ٤٢٩.

(٥) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥٢/١٤، تاج العروس، الزبيدي ١١٥/٣٧.

(٦) انظر: الصحاح ٢٢٧٤/٦.

(٧) انظر: الكليات، الكفوي ص ٨٠٣، روح المعاني، الألوسي ١٣١/١١.

٥ العمارة:

العمارة لغة:

نقيض الخراب: يقال: عمر أرضه: يعمرها عمارة، قال تعالى: ﴿وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [التوبة: ١٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٨].

إما من العمارة التي هي حفظ البناء، أو من العمرة التي هي الزيارة، أو من قولهم: عمرت بمكان كذا، أي: أقمت به^(١).

وعمر المنزل بأهله عمرًا، وعمره أهله: إذا سكنوه، وأقاموا به، وعمرت الدار عمرًا أيضًا: بنيتها، والاسم العمارة بالكسر، والعمران: اسم للبنيان^(٢).

العمارة اصطلاحًا:

هي اسم للبيت المؤلف من طبقات وشقق^(٣).

الصلة بين البيت والعمارة:

أن العمارة اسم للبيت الواسع المكون من طوابق وشقق إلا أن فيه معنى حفظ البناء والإقامة فيه.

٦ الخراب:

الخراب لغة:

ضد العمارة، قال تعالى: ﴿وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾ [البقرة: ١١٤]^(٤).

قال ابن فارس: «(خرَب) الخاء والراء والباء أصل يدل على التثلم والتثقب، فالخربة: الثقب، ومن الباب، وهو الأصل، الخراب: ضد العمارة»^(٥).

الخراب اصطلاحًا:

هو ذهاب العمارة^(٦).

(١) انظر: المفردات، الراغب ص ٥٨٦.

(٢) انظر: المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٤٢٩.

(٣) انظر: معجم لغة الفقهاء، محمد قلعجي وحامد قتيبي ص ٣٢١.

(٤) انظر: المفردات، الراغب ص ٢٧٧.

(٥) مقاييس اللغة ٢/ ١٧٤.

(٦) انظر: التوقيف، المناوي ص ١٥٤.

الصلة بين البيوت والخراب:

أن الخراب هو نقيض البيوت وعمارتها والسكن فيها.

٧ الخواء:

الخواء في اللغة:

قال ابن فارس: «(خوى) الخاء والواو والياء أصل واحد يدل على الخلو والسقوط»^(١)، وخوت الدار: تهدمت وسقطت؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِبْرَافِيمَ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٥٢].

أي: خالية، كما قال تعالى: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْعَثُ لِقَوْمِهَا رَسُولًا يَكْفِيهِمْ مَعْلَمَةً وَفَصَّرَ مَشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥]؛ أي: خالية، وقيل: ساقطة على سقوفها، وأرض خاوية: خالية من أهلها^(٢).

الخواء اصطلاحًا:

سقوط البيوت وتهدمها بعد خلوها من سكانها الذين كانوا يعمرونها^(٣).

الصلة بين البيوت والخواء:

أن الخواء صفة للبيوت الخالية من سكانها بسبب ما حل بها من عذاب، كما يلاحظ ذلك من الآيات التي ورد فيها لفظ: (خاوية)، قال تعالى: ﴿أَوَكَلَّيْكَ مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩].

وقال تعالى: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْعَثُ لِقَوْمِهَا رَسُولًا يَكْفِيهِمْ مَعْلَمَةً وَفَصَّرَ مَشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥].

وقال سبحانه: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِبْرَافِيمَ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٥٢].

(١) مقاييس اللغة ٢/ ٢٢٥.

(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٢٤٥.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٢٩٠، فتح القدير، الشوكاني ١/ ٣٢٠.

البيوت نعمة

من نعم الله تعالى على عباده أن جعل البيوت مكاناً للعبادة، ومكاناً للأمن ومكاناً للستر، وللراحة والاستقرار، ومكاناً للأكل والإدخار، وبيان ذلك في الفقرات الآتية:

أولاً: مكان للعبادة:

إن البيوت التي جعلها الله للعبادة على ثلاثة أنواع:

١. البيت الحرام.

وهو مكان للعبادة حيث يجب على المسلم استقبال البيت الحرام في كل صلاة، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦].

قال أبو جعفر الطبري: «ومعنى ذلك: إن أول بيت وضع للناس لعبادة الله فيه»^(١). وأخرج ابن أبي حاتم عن علي رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ قال: «كانت البيوت قبله، ولكن كان أول بيت وضع لعبادة الله»^(٢).

وقد أمر الله تعالى باستقبال البيت الحرام بقوله: ﴿قَدْ زَيَّنَّا قَلْبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيكَ قِبْلَةً رَضِيتَ لَهَا قَوْلَ وَجْهِكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ

(١) جامع البيان ٦/ ٢٢.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٣/ ٧٠٧.

سُطْرَةٍ» [البقرة: ١٤٤].

والمعنى: «من أي مكان ويقعة شخصت فخرجت يا محمد، فول وجهك تلقاء المسجد الحرام، وهو شطره، وأينما كنتم أيها المؤمنون من أرض الله، فولوا وجوهكم في صلاتكم تجاهه وقبله وقصده»^(٣).

كما أنه مكان لعبادة الحج قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٧].

أي: ويجب الحج على المستطيع من هذه الأمة، واستطاعة السبيل إلى الشيء إمكان الوصول إليه، وتختلف استطاعة باختلاف الأشخاص، واختلاف البعد عن البيت والقرب منه^(٤).

والمعنى: ولله على من استطاع من الناس حج البيت، أي: فرض واجب لله تعالى على من استطاع من أهل التكليف السبيل إلى حج بيته الحرام^(٥).

٢. المساجد.

إن المساجد بيوت ومكان للعبادة، قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ١٩٩.

(٤) تفسير المراغي ٩/ ٤.

وانظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٣٧، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٤٧٣.

(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٣٧، الوسيط، الواحدي ١/ ٤٦٧.

فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾
[النور: ٣٦] ^(١).

والبيوت المذكور في الآية هي: المساجد المخصصة لله تعالى بالعبادة، وقوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾، أي: أذن الله أن تبني، فيصلى فيها الصلاة المفروضة بالغدو والآصال بالبكر والعشايا ^(٢).

٣. بيوت المؤمنين.

إن بيوت المؤمنين مكان للعبادة كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَلْيَيْنَا أَنْ يَبْنِيَ لِقَوْمِكَ بِصَرَ بُيُوتًا وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾
[يونس: ٨٧] يقول: واجعلوا بيوتكم

مساجد تصلون فيها ^(٣)، وقيل: ﴿وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي: صلوا في بيوتكم لتأمنوا من الخوف؛ لأنهم آمنوا على خوف من فرعون ^(٤)، ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: في بيوتكم، وفي ذلك دلالة على جواز كتم الصلاة عند الخوف، ﴿بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بالنصرة في الدنيا، والجنة في العقبى ^(٥).

كما أن الله تعالى أخبر عن حال عباده في بيوتهم، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ

لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا﴾ [الفرقان: ٦٤].

أي: والذين يبيتون ساجدين قائمين لربهم، أي: يحيون الليل كله أو بعضه بالصلاة، وخص العبادة بالبيتوتة؛ لأن العبادة بالليل أخص وأبعد عن الرياء، وقال ابن عباس رضي الله عنه: من صلى ركعتين أو أكثر بعد العشاء فقد بات لله ساجدا قائما،

ونحو الآية قوله تعالى: ﴿نَتَجَافَىٰ جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦].

وقوله تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ النَّبِيِّينَ مَا يَهْتَفُونَ ﴿١٧﴾ وَإِلَّا تَسْتَأْذِنُوا فَمَا يَسْتَفِزُّونَ﴾
[الذاريات: ١٧-١٨].

وقوله عز وجل: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ إِذْ نَاءَ الْبَيْتِ سَاجِدًا وَفَإِذَا بَعِثُوا الْآخِرَةَ يَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾
[الزمر: ٩] ^(٦).

وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يجعل الرجل من صلاته غير المفروضة في بيته شيئا، فقد روى ابن عمر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (اجعلوا في بيوتكم من صلاتكم، ولا تتخذوها قبورا) ^(٧).

(٦) انظر: تفسير المراغي ٣٧/١٩.
(٧) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب كراهية الصلاة في المقابر، رقم ٤٣٢، ٩٤/١، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة النافلة في بيته، رقم ٧٧٧، ٥٣٨/١.

(١) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٥٣٤/٣.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩٢/١٩، الوسيط، الواحدي ٣٢١/٣.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧١/١٥.
(٤) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣٠/٣.
(٥) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٥٦/٦.

وروى زيد بن ثابت رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اتخذ حجرة قال: حسبت أنه قال من حصير - في رمضان، فصلى فيها ليالي، فصلى بصلاته ناس من أصحابه، فلما علم بهم جعل يقعد، فخرج إليهم فقال: (قد عرفت الذي رأيتم من صنعكم، فصلوا أيها الناس في بيوتكم، فإن أفضل الصلاة صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة)^(١).

وفي هذه الأحاديث بيان بأن بيوت المؤمنين مكان للصلاة، وفيها أيضًا حث للصلاة في البيوت فيما عدا الفروض، فإنها تكون في المساجد من أجل الجماعة.

ثانيًا: مكان للأمن:

جعل الله تعالى البيوت مكانًا يأمن فيه الإنسان على نفسه وأهله وماله، وجعل لهذه البيوت حرمة لا يجوز دخولها إلا بإذن من صاحبها فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ٢٧].

وشرع الاستئذان لمن يزور أحدًا في بيته؛ لأن الناس اتخذوا البيوت للاستئمان مما

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب صلاة الليل، رقم ٧٣١، ١٤٧/١، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة النافلة في بيته، رقم ٥٣٩، ٧٨١، ١/٥٣٩.

يؤذي الأبدان من حرٍّ وقُرٍّ ومطرٍ، ومما يؤذي العرض والنفس من انكشاف ما لا يحب الساكن اطلاع الناس عليه، فإذا كان في بيته وجاءه أحد فهو لا يدخله حتى يصلح ما في بيته وليستر ما يحب أن يستره، ثم يأذن له أو يخرج له فيكلمه من خارج الباب^(٢).

وحكمة الاستئذان هي: توفير حرمة المسكن وحرية السكان، لذا قال الله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أن

الاستئذان خير وأفضل للطرفين، المستأذن وأهل البيت، فهو خير من الدخول فجأة، والمعنى: قد أنزل الله عليكم هذا الأدب، وأرشدكم إليه، لتذكروا وتتعلّموا، وتعملوا بالأصلح لكم، ﴿فَإِنْ لَمْ يَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يَأْذَنَ لَكُمْ وَلَنْ يَدَّ لَكُمْ أَنْتُمْ أَتَجْعَلُوا فَارِجًا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢٨] أي: فإن لم تجدوا في بيوت غيركم أحدًا يأذن لكم، فلا تدخلوها حتى يأذن لكم صاحب الدار، فلا يحل الدخول في هذه الحالة؛ لأنه تصرف في ملك الغير بغير إذنه؛ ولأن للبيوت حرمة، وهي محل السكن الخاص والطمأنينة الشخصية، والراحة والوداعة^(٣).

وقد أباح النبي صلى الله عليه وسلم حرمة من تطلع في بيوت الغير بغير إذن،

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩٦/١٨.

(٣) انظر: الوسيط، الزحيلي ١٧٤٤/٢.

وقد جعل الله تعالى بيته الحرام مكاناً للأمن العام، قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا وَانْجِدُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتَكَ لِلطَّائِفِينَ وَالْمُكَفِّينَ وَالرُّكَّعَ السُّجُودَ ١٢٥﴾ [البقرة: ١٢٥].

فقد استجاب الله دعوة خليله إبراهيم عليه السلام فجعل مكة المكرمة بلدًا آمنًا، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِن الشَّرْعِ مَنْ ءَامَنَ مِنهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَفِي سَآئِرِ الْمُصِيدِ ١٢٦﴾ [البقرة: ١٢٦].

فجعل الله مكة المكرمة بلدًا آمنًا من الظلم والإغارات الواقعة على غيره، فكان الرجل يلقي قاتل أبيه فيه فلا يهيجه^(٤).

وقال تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَاتٌ يِّنَتُكَ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

أي: وأمن من دخله، والعرب جميعًا قد اتفقوا على احترامه وتعظيمه، فمن دخله أمن على نفسه من الاعتداء والإيذاء، ومن

رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في الزهادة في الدنيا، رقم ٢٣٤٦، ٥٧٤/٤، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب القناعة، رقم ٤١٤١، ١٣٨٧/٢.

والحديث حسنه الترمذي، والألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته رقم ٦٠٤٢، ١٠٤٤/٢.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٤/٤٩.

وأهدر كل جناية تقع عليه؛ لما أخرجه الشيخان في صحيحيهما، ففي البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لو أن امرأً اطلع عليك بغير إذن فخذفته بعصاة ففقت عينه، لم يكن عليك جناح)^(١)، وفي مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: (من اطلع في بيت قوم من غير إذنه، حل لهم أن يفقوا عينه)^(٢).

وفي هذه الأحاديث دليل على أن البيوت مكان للأمن حيث يأمن فيها الإنسان على نفسه وحرمة وأهله، ولهذا فقد أباح النبي صلى الله عليه وسلم ورفع الجناح عن من تطلع في بيت غيره بغير إذن بأن يفقأ عين من يفعل ذلك، وأن ذلك هدر لا قصاص فيه، ولأدوية.

والأمن في البيوت نعمة تستوجب الشكر؛ لما رواه سلمة بن عبيد الله بن محسن الخطمي، عن أبيه، وكانت له صحبة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من أصبح منكم آمنًا في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا)، وحيزت: جُمِعَتْ^(٣).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، باب من اطلع في بيت قوم ففقأ عينه، رقم ١١/٩، ٦٩٠٢.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب تحريم النظر في بيت غيره، رقم ٢١٥٨، ١٦٩٩/٣.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد عن

أن يسفك دمه أو تستباح حرمانه ما دام فيه، وقد مضوا على ذلك الأجيال الطوال في الجاهلية على كثرة ما بينهم من الأحقاد والضغائن، واختلاف المنازع والأهواء، وقد أقر الإسلام هذا، وكل ذلك بفضل دعوة إبراهيم عليه السلام ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦] (١).

والمعنى: ومن دخله كان آمناً يعني: حرم مكة إذا دخله الخائف يأمن من كل سوء، وكذلك كان الأمر في حال الجاهلية، كما قال الحسن البصري وغيره: كان الرجل يقتل فيضع في عنقه صوفة ويدخل الحرم، فيلقاه ابن المقتول فلا يهيجه حتى يخرج، وعن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا﴾ قال: من عاذ بالبيت أعاده البيت، ولكن لا يؤوى ولا يطعم ولا يسقى، فإذا خرج أخذ بذنبه.

وقال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيَخْطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

وقال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۚ الَّتِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٣-٤].

وحتى إنه من جملة تحريمها حرمة اصطياد صيدها وتنفيذه عن أوكاره، وحرمة

قطع شجرها (٢).

ثالثاً: مكان للستر:

جعل الله تعالى البيوت مكاناً لستر العورات والحرمان، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ [النحل: ٨٠].

أي: جعل لكم موضعاً تسكنون فيه أيام مقامكم، وقيل: معناه: جعل لكم من بيوتكم ما تسكن إليه أنفسكم من ستر العورة والحرم، فتهداً فيه جوارحكم (٣).

وقوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ موضعاً تسكنون فيه، قال ابن عباس، ومجاهد: يعني: المساكن من الحجر والمدر يستر عوراتكم وحرمتكم، وذلك أن الله خلق الخشب والمدر والآلة التي بها يمكن تسقيف البيوت وبناءها، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾ يعني: الأنطاع والأدم، بيوتاً يعني: القباب والخيام، ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ يخف عليكم حملها في أسفاركم، ومعنى الظعن: سير أهل البوادي لنجعة، أو حضور ماء، أو طلب مرتع، ﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ قال مقاتل: لا تثقل عليكم في الحالتين (٤).

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦٨/٢.

(٣) انظر: الهداية، مكي بن أبي طالب ٤٠٥٨/٦.

(٤) انظر: الوسيط، الواحدي ٧٦/٣.

(١) انظر: تفسير المراغي ٨/٤.

رابعاً: الراحة والاستقرار:

جعل الله تعالى البيوت مكاناً للراحة والاستقرار، وهذا ما يفيد معنى السكن الذي جعله الله تعالى في البيوت.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئَةً إِلَى جَانِبِ (٨٠)﴾ [النحل: ٨٠].

يذكر تبارك وتعالى تمام نعمه على عبيده بما جعل لهم من البيوت التي هي سكن لهم، يأوون إليها، ويسترون بها، ويتنفعون بها بسائر وجوه الانتفاع، وجعل لهم أيضاً من جلود الأنعام بيوتاً، أي: من الأدم، يستخفون حملها في أسفارهم ليضربوها لهم في إقامتهم في السفر والحضر، ولهذا قال: ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ بما يحقق لهم الراحة والاستقرار فيها في كلا الحالتين^(١).

قال سيد قطب: «والسكن والطمأنينة في البيوت نعمة لا يقدرها حق قدرها إلا المشردون الذين

لا بيوت لهم ولا سكن ولا طمأنينة، وذكرها في السياق يجيء بعد الحديث عن الغيب، وظل السكن ليس غريباً عن ظل الغيب، فكلاهما فيه خفاء وستر، والتذكير (١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥٠٧/٤.

بالسكن يمس المشاعر الغافلة عن قيمة هذه النعمة.

ونستطرد هنا إلى شيء عن نظرة الإسلام إلى البيت، بمناسبة هذا التعبير الموحى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ فهكذا يريد الإسلام البيت مكاناً للسكنة النفسية والاطمئنان الشعوري، هكذا يريده مريحاً تطمئن إليه النفس وتسكن وتأمّن سواء بكفايته المادية للسكنى والراحة، أو باطمئنان من فيه بعضهم لبعض، ويسكن من فيه كل إلى الآخر، فليس البيت مكاناً للنزاع والشقاق والخصام، إنما هو مبيت وسكن وأمن واطمئنان وسلام.

ومن ثم يضمن الإسلام للبيت حرمة، ليضمن له أمنه وسلامه واطمئنانه، فلا يدخله داخل إلا بعد الاستئذان، ولا يقتحمه أحد - بغير حق - باسم السلطان، ولا يتطلع أحد على من فيه لسبب من الأسباب، ولا يتجسس أحد على أهله في غفلة منهم أو غيبة، فيروع أمنهم، ويخل بالسكن الذي يريده الإسلام للبيوت، ويعبر عنه ذلك التعبير الجميل العميق!

ولأن المشهد مشهد بيوت وأكنان وسرايل، فإن السياق يعرض من الأنعام جانبها الذي يتناسق مع مفردات المشهد: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا

معناها الخزائن، كقوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ [الأنعام: ٥٩] (٣).

ويجوز أن تكون التي يفتح بها، وهذا قول عطاء، عن ابن عباس.

قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْهُ مَفَاتِحُهُ﴾ [النور: ٦١] ما خزنتموه لغيركم، قال ابن عباس: يعني بذلك وكيل الرجل وقيمه في ضيعته، لا بأس عليه أن يأكل من ثمر حائطه، ويشرب من لبن ماشيته، قال عكرمة: إذا ملك الرجل المفتاح فهو خازن، فلا بأس أن يطعم الشيء اليسير، وقال السدي: الرجل يولى طعام غيره يقوم عليه، فلا بأس أن يأكل منه (٤).

وقوله تعالى: ﴿أَوْ صَدِيقَكُمْ﴾ [النور: ٦١] معطوف على ما قبله والصديق هو من يصدق في مودتك، وتصدق أنت في مودته، وهو اسم جنس يطلق على الواحد والجمع، والمراد هنا: الجمع، أي:

ولا حرج عليكم أيضًا في الأكل من بيوت أصدقائكم (٥)، والمعنى: ليس عليكم جناح أن تأكلوا من منازل أصدقائكم وأصحابكم إذا دخلتموها وإن لم يحضروا من غير أن تزودوا وتحملوا (٦) إذا علمتم أن ذلك لا يشق عليهم ولا يكرهون ذلك.

(٣) انظر: المصدر السابق.

(٤) انظر: الوسيط، الواحدي ٣/ ٣٢٩.

(٥) انظر: الوسيط، طنطاوي ١٠/ ١٥٦.

(٦) انظر: الوسيط، الواحدي ٣/ ٣٢٩.

أي: ليس عليكم حرج أن تأكلوا من أموال عيالكم وأزواجكم، وبيت المرأة كبيت الرجل، وقال ابن قتيبة: أراد أن تأكلوا من بيوت أولادكم، فنسب بيوت الأولاد إلى الآباء، لأن الأولاد كسبهم وأموالهم كأموالهم (١).

وذكر سبحانه بيوتهم هنا مع أنه من المعروف أنه لا حرج في أن يأكل الإنسان من بيته، للإشعار بأن أكلهم من بيوت الذين سيذكرهم سبحانه بعد ذلك من الآباء والأمهات والأقارب، يتساوى في نفي الحرج مع أكلهم من بيوتهم، أي: أن أكل الناس من بيوتهم لم يذكر هنا لنفي حرج كان متوهمًا، وإنما ذكر لإظهار التسوية بين أكلهم من بيوت أقاربهم وأصدقائهم، وبين أكلهم من بيوتهم (٢).

ثم ذكر سبحانه بيوتًا أخرى لا حرج عليهم في الأكل منها، فقال: ﴿بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْهُ مَفَاتِحُهُ﴾ [النور: ٦١].

يعني: بيوت عبيدكم ومما يملكون، وذلك أن السيد يملك منزل عبده، والمفتاح

(١) الوسيط، الواحدي ٣/ ٣٢٩.

(٢) انظر: الوسيط، طنطاوي ١٠/ ١٥٦.

وقال قتادة: إذا دخلت بيت صديقك فلا بأس أن تأكل بغير إذنه^(١).

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ [النور: ٦١].

قال ابن كثير: «قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية: وذلك لما أنزل الله: ﴿يَأْتِيهَا الْذِّبُّ أَمْنًا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء: ٢٩] قال المسلمون: إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل، والطعام هو أفضل من الأموال، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد، فكف الناس عن ذلك، فأنزل الله ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ صَدِيقَكُمْ﴾.

وكانوا أيضًا يأنفون ويخرجون أن يأكل الرجل الطعام وحده حتى يكون معه غيره، فرخص الله لهم في ذلك، أن يأكلوا جميعًا أو أشتاتًا، وقال قتادة: كان هذا الحي من بني كنانة يرى أحدهم أن مخزاة عليه أن يأكل وحده في الجاهلية، حتى إن كان الرجل ليسوق الذود الحفل وهو جائع حتى يجد من يؤاكله ويشاربه، فأنزل الله ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعًا أو أشتاتًا، فهذه رخصة من الله تعالى في أن يأكل الرجل وحده ومع الجماعة وإن كان الأكل مع الجماعة أبرك وأفضل^(٢).

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧٩/٦.

(٢) المصدر السابق.

وانظر: الوسيط، الواحدي ٣/٣٢٩.

أما الادخار في البيوت:

جعل الله تعالى البيوت مكانًا للادخار وحفظ ما يحتاجه الإنسان في المستقبل، وذلك لأن مسكن الإنسان أعز البيوت عنده وأخفى لما يريد أن يخفيه، ومكان أمنه واستقراره فلا غرابة أن يكون مكان مدخراته، وهذه المدخرات لا يعلم بها إلا صاحبها^(٣)، ولهذا جعلها الله تعالى من معجزات سيدنا عيسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِّنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٩].

والمعنى: أن عيسى عليه السلام قد قال لقومه بنى إسرائيل: وإن من معجزاتي التي تدل على صدقي فيما أبلغه عن ربي أنني أخبركم بالشيء الذي تأكلونه وبالشيء الذي تخبئونه في بيوتكم لوقت حاجتكم إليه^(٤).

والادخار هو: إعداد الشيء لوقت الحاجة إليه، ويقال: لا يعرف الادخار من المخلوقات إلا الإنسان والفأر والنمل، أما الحمار مثلاً مع قدرته على الحمل لا يحمل

(٣) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٤/٤٠٦.

(٤) انظر: الوسيط، طنطاوي ٢/١١٥.

أنواع البيوت

إن البيوت المذكورة في القرآن الكريم على أنواع، منها: بيوت الله تعالى، وبيوت الأنبياء عليهم السلام، وبيوت المؤمنين، وبيوت الظالمين، وبيوت المخلوقات من غير بني آدم، وسيكون بيانها في المطالب الآتية:

أولاً: بيوت الله تعالى:

إن بيوت الله تعالى المذكورة في القرآن هي: البيت المعمور، والبيت الحرام، والمسجد الأقصى، وعامة المساجد، ويمكن بيانها بإجاز في الفقرات الآتية:

١. البيت المعمور.

من بيوت الله تعالى المذكورة في القرآن الكريم: البيت المعمور، وقد ورد ذكره في قوله تعالى: ﴿وَالْبَيْتَ الْمَعْمُورَ﴾ [الطور: ٤].

وفي البيت المعمور فيه قولان:

القول الأول: أنه بيت في السماء، وفي أي سماء هو؟ فيه ثلاثة أقوال:

أولاً: إنه في السماء السابعة، وهذا هو مذهب جمهور المفسرين^(٢)، وهو الصحيح، ويدل على ذلك ما رواه أنس

رزقه؛ لذلك تراه إن شبع لا يدخر شيئاً، وربما يدوس الأكل الباقي، أو يبول عليه، وكذلك كل الحيوانات^(١).

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٤٥٥/٢٢، الوسيط، الواحدي ٤/١٨٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/٣٩٨.

(١) انظر: تفسير الشعراوي ١٨/١١٢٥١.

رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أتيت بالبراق، وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار، ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه)، قال: (فركبته حتى أتيت بيت المقدس)،....، ثم عرج بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، فقل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد صلى الله عليه وسلم، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم صلى الله عليه وسلم مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه^(١).

ويدل عليه كذلك حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه في «الصحيحين» قال: «قال النبي صلى الله عليه وسلم: (بيننا أنا عند البيت بين النائم، واليقظان فأتينا السماء السابعة، قيل من هذا؟ قيل: جبريل، قيل من معك؟ قيل: محمد، قيل: وقد أرسل إليه، مرحباً به، ولنعم المجيء جاء، فأتيت على إبراهيم فسلمت عليه، فقال: مرحباً بك من ابن نبي، فرفع لي البيت المعمور، فسألت جبريل، فقال: هذا البيت المعمور يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك، إذا

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماوات، وفرض الصلوات، رقم ١٤٥/١، ١٦٢.

خرجوا لم يعودوا إليه آخر ما عليهم^(٢).
ثانياً: إنه في السماء السادسة، قاله علي رضي الله عنه^(٣).

ثالثاً: إنه في السماء الدنيا، روي عن ابن عباس رضي الله عنه، وقال: هو حيال الكعبة يحجه كل يوم سبعون ألف ملك، ثم لا يعودون فيه حتى تقوم الساعة، يسمى الضراح^(٤).

القول الثاني: أنه البيت الحرام، وعمارته بالحج والطواف، قاله الحسن^(٥).

ووصف هذا البيت بأنه معمور لكثرة غاشيته، وقاصديه^(٦).

قال الماوردي: «وفي ﴿الْمَعْمُور﴾ وجهان: أحدهما: أنه معمور بالقصد إليه،

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم ٣٢٠٧، ١١١/٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماوات، وفرض الصلوات، رقم ١٦٢، ١٤٥/١.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٤٥٥/٢٢، الوسيط، الواحدي ١٨٤/٤، تفسير القرآن، السمعاني ٢٦٧/٥، زاد المسير، ابن الجوزي ١٧٥/٤.

(٤) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٢٦٧/٥، زاد المسير، ابن الجوزي ١٧٥/٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦٠/١٧.

(٥) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٣٧٨/٥، تفسير القرآن، السمعاني ٢٦٧/٥، زاد المسير، ابن الجوزي ١٧٥/٤.

(٦) جامع البيان، الطبري ٤٥٤/٢٢.

وأهم موضع في مكة، وهو اسم لمسجد الكعبة، وقد يمتد إلى حدود الحرم، وهو قبلة المسلمين، وإليه يحجون من كل فج عميق^(٥).

وقد ورد ذكر البيت في القرآن الكريم في عشرة مواضع، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾^(٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^(٧) [آل عمران: ٩٦-٩٧].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا﴾ [البقرة: ١٢٥].

كما ورود بلفظ المسجد الحرام في القرآن الكريم في خمسة عشر موضعاً، منها قوله تعالى: ﴿قَدْ رَأَى ثَقَلَبٌ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلْتَوَلَّيَكَ قَبْلَةً رَّضِيحاً قَوْلَ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِفَعْلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾^(٨) [البقرة: ١٤٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَايَا قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَقِمْوْا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

(٥) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٣/ ١١٥، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٤٧٢، الكشف، الرمخشري ٣/ ١٥١.

والثاني: بالمقام عليه^(١).

وقال ابن كثير: «ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حديث الإسراء بعد مجاوزته إلى السماء السابعة: (ثم رفع بي إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفاً، لا يعودون إليه آخر ما عليهم)^(٢)، يعني: يتعبدون فيه ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم، كذلك ذاك البيت المعمور هو كعبة أهل السماء السابعة، ولهذا وجد إبراهيم الخليل عليه السلام مسنداً ظهره إلى البيت المعمور؛ لأنه باني الكعبة الأرضية، والجزء من جنس العمل، وهو بحيال الكعبة، وفي كل سماء بيت يتعبد فيه أهلها ويصلون إليه، والذي في السماء الدنيا يقال له: بيت العزة^(٣).

ولعظمة هذا البيت فقد أقسم تعالى به مع ما ذكر في الآية من غيره من مخلوقاته الدالة على قدرته العظيمة على أن عذابه واقع بأعدائه، وأنه لا دافع له عنهم^(٤).

٢. البيت الحرام.

إن البيت الحرام هو: أول بيت وضع في الأرض، وأعظم المساجد وأفضلها،

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٧٨.

(٢) سبق تخريجه قريباً.

(٣) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ١٧٦،

تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣٩٨.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣٩٨.

﴿٢﴾ [المائدة: ٢] وقوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ لِزَيَّةٍ مِنْ مَّيْمِنِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١] ^(١).

٣. المسجد الأقصى.

من بيوت الله تعالى: المسجد الأقصى، وهو بيت المقدس، وهو أولى القبلتين، ومسرى الرسول الكريم، قال تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ لِزَيَّةٍ مِنْ مَّيْمِنِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١] ^(١).

وسمي الأقصى لبعده ما بينه وبين المسجد الحرام ^(٢) أو لأنه أبعد المساجد التي تزار، ويبتغى في زيارته الفضل بعد المسجد الحرام ^(٣).

وقد بارك الله حوله بالماء والأنهار والأشجار والثمار، قال مجاهد: سماه مباركاً؛ لأنه مقر الأنبياء، وفيه مهبط الملائكة والوحي، ومنه يحشر الناس يوم القيامة ^(٤).

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ١١٥/٣، معالم التنزيل، البغوي ٤٧٢/١، الكشف، الزمخشري ١٥١/٣.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢٢٦/٣، الوسيط، الواحدي ٩٤/٣.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٣٣٣/١٧.

(٤) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٥٥/٦.

وقد ذكر المسجد الأقصى في القرآن مرتين مرة باللفظ الصريح كما سبق في الآية السابقة والثانية بلفظ المسجد في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّأَ مَا عَلَوُا تَتَبَرَّأَ﴾ [الإسراء: ٧] ^(٥).

والمعنى: وليدخلوا المسجد، أي: بيت المقدس كما دخلوه أول مرة، أي: في التي جاسوا فيها خلال الديار، وليتبرأوا أي: يدمروا ويخربوا ما علوا أي: ما ظهوروا عليه تدميراً ^(٥).

اختلف المفسرون في من بنى المسجد الأقصى؟ على قولين:

القول الأول: ذهب بعض المفسرين إلى أن أول من بناه هو إبراهيم عليه السلام ويدل على ذلك الحديث الذي رواه أبو ذر رضي الله عنه، قال: قلت يا رسول الله، أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: (المسجد الحرام) قال: قلت: ثم أي؟ قال: (المسجد الأقصى) قلت: كم كان بينهما؟ قال: (أربعون سنة، ثم أينما أدرتكم الصلاة بعد فصله، فإن الفضل فيه) ^(٦)، وقدر بعض

(٥) تفسير القرآن العظيم ٤٥/٥.

وانظر: جامع البيان، الطبري ٣٨٨/١٧،

النكت والعيون الماوردي ٢٣١/٣.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث

المسجد الأقصى هو إبراهيم عليه السلام
لحديث أبي ذر السابق، وهو يدل على أنه
قد كان بني أيضًا زمن إبراهيم أو إسحاق
ويعقوب عليهما السلام، ولكن بنيانه على
التمام وكمال الهيئة كان على عهد سليمان
عليه السلام^(٤).

وهو أحد المساجد التي تشد إليها الرحال
دون غيرها؛ لما رواه أبو هريرة رضي الله
عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا
تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد
الحرام، ومسجد الرسول صلى الله عليه
وسلم، ومسجد الأقصى)^(٥).

٤. عامة المساجد.

أما عامة المساجد المنتشرة في بقاع
الأرض فهي بيوت الله تعالى التي أمر بأن
ترفع، ويذكر فيها اسمه، قال تعالى: ﴿يُوتِ
يُوتِ أَذْنُ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعُ وَيَذْكُرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ
لَهُ فِيهَا بِالْفُتُو وَالْأَصَالِ﴾ [النور: ٣٦].

قال الماوردي: «في هذه البيوت قولان:
أحدهما: أنها المساجد، قاله ابن عباس،
والحسن، ومجاهد.

(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤٧٤/١
البحر المحيط، أبو حيان ٢٦٨/٣ التحرير
والتنوير، ابن عاشور ١٦/١٥.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة،
باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة،
رقم ١١٨٩، ٦٠/٢، ومسلم في صحيحه،
كتاب الحج، باب لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة
مساجد، رقم ١٣٩٧، ١٠١٤/٢.

المفسرين أن ما بين إبراهيم وسليمان عليهما
السلام من الزمان عشرة قرون^(١).

القول الثاني: إن أول من بناه هو سليمان
عليه السلام^(٢).

واستدلوا بما رواه عبد الله بن عمرو
رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم: (أن سليمان بن داود صلى الله
عليه وسلم لما بنى بيت المقدس سأل الله عز
وجل خللاً ثلاثة: سأل الله عز وجل حكماً
يصادف حكمه فأوتيته، وسأل الله عز وجل
ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأوتيته، وسأل
الله عز وجل حين فرغ من بناء المسجد أن
لا يأتيه أحد لا ينهزه إلا الصلاة فيه أن يخرجه
من خطيئته كيوم ولدته أمه)^(٣).

الراجح: الجمع بين القولين فقد جمع
بعض المفسرين بين القولين: بأن الذي بنى

الأنبياء، باب قول الله تعالى: (واتخذ الله
إبراهيم خليلًا)، رقم ٣٣٦٦، ١٤٥/٤،
ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد
ومواضع الصلاة، رقم ٥٢٠، ٣٧٠/١.

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤٧٤/١،
البحر المحيط، أبو حيان ٢٦٨/٣، التحرير
والتنوير، ابن عاشور ١٦/١٥.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي
١٣٧/٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور
١٦/١٥.

(٣) أخرجه النسائي في سننه، كتاب المساجد،
فضل المسجد الأقصى والصلاة فيه،
رقم ٦٩٣، ٣٤/٢.

والحديث صحيحه الألباني في صحيح الجامع
الصغير وزيادته، رقم ٢٠٩٠، ٤٢٠/١.

البقاع كلها، يعني: أن الأرض كلها مواضع للسجود، وجعلت مسجداً لهذه الأمة^(٢).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَوْا أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].

وفي هذه المساجد قولان: أحدهما: أنها مواضع السجود من المصلى، فعلى هذا عمارتها تحتل ثلاثة أوجه:

أحدها: بالمحافظة على إقامة الصلاة.
والثاني: بترك الرياء.
والثالث: بالخشوع والإعراض عما ينهى.

والقول الثاني: أنها بيوت الله تعالى المتخذة لإقامة الصلوات.
فعلى هذا عمارتها تحتل ثلاثة أوجه:
أحدها: إنما يعمرها بالإيمان من آمن بالله تعالى.
والثاني: إنما يعمرها بالزيارة لها والصلاة فيها من آمن بالله تعالى.
والثالث: إنما يرغب في عمارة بنائها من آمن بالله تعالى^(٣).

وعماره المساجد نوعان: حسية،

الثاني: أنها سائر البيوت، قاله عكرمة. وفي قوله: ﴿إِذَنْ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعَ﴾ أربعة أوجه:

أحدها: أن تبنى، قاله مجاهد، كقوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ [البقرة: ١٢٧]. أي: يبنى.

الثاني: أنها تطهر من الأنجاس والمعاصي، حكاه ابن عيسى.

الثالث: أن تعظم، قاله الحسن.
الرابع: أن ترفع فيها الحوائج إلى الله^(١).

كما ذكر الله تعالى هذه البيوت باسم المساجد في آيات، منها قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الحج: ١٨].

فقد ذكر المفسرون أن المراد بالمساجد: بيوت الله التي وضعت للصلاة على أحد المعاني الواردة في الآية، قال قتادة: كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم ويبيعهم، أشركوا بالله، فأمر الله أن يخلص المسلمون له الدعوة إذا دخلوا مساجدهم، وقال سعيد بن جبير: المساجد الأعضاء التي يسجد عليها العبد، أي: أن هذه الأعضاء التي يقع السجود عليها مخلوقة لله، فلا يسجدوا عليها لغيره، وقال الحسن: أراد

(٢) الوسيط، الواحدي ٤/ ٣٦٧.

وانظر: النكت والعيون، الماوردي ٦/ ١١٩.

(٣) النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٣٤٧.

(١) النكت والعيون ٤/ ١٠٦.

وانظر: الوسيط، الواحدي ٣/ ٣٢١.

دل عليه ما ذكر من إقامة الصلاة وغيرها لأنه مما جاء به الرسول، فإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة إنما يصح من المؤمن بالرسول.

وهؤلاء الموصوفون بهذه الصفات هم الذين يقتصر عليهم عمارة المساجد الحسية بالبناء والتشييد والترميم، والمعنوية بالعبادة والأذكار وحضور دروس العلم، فلا يعمر بيوت الله غيرهم، وهؤلاء هم الذين يرجى بحق أن يكونوا من المهتدين إلى الخير دائماً، وإلى ما يحب الله ويرضيه، المستحقون الثواب على أعمالهم، لا أولئك المشركون الضالون الذين يجمعون بين الأضداد، فيشركون بالله ويكفرون بما جاء به رسوله، ويسجدون للطواغيت (الأصنام) ثم يقدمون بعض الخدمات للمسجد الحرام^(٢).

كما أن الله تعالى ذم من يسعى في خراب المساجد، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٤].

قال الرازي في تفسيرها قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ «فإن ظاهرها يقتضي أن يكون الساعي في تخريب المساجد أسوأ حالاً من

ومعنوية؛ فالحسية: بالتشييد والبناء والترميم والتنظيف والفرش والتنوير بالمصابيح والدخول إليها والقعود فيها، والمعنوية: بالصلاة وذكر الله والاعتكاف والزيارة للعبادة فيها، وذلك يشمل العمرة، ومن الذكر: درس العلم، بل هو أجله وأعظمه وصيانتها مما لم تبين له المساجد من أحاديث الدنيا، فضلاً عن فضول الحديث^(١).

والمعنى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ أي: إنما يستحق عمارة المساجد وتستقيم منه العمارة، ويكون أهلاً لها من اتصف بالإيمان بالله تعالى إيماناً صحيحاً، على النحو المبين في القرآن من الإقرار بوجود الله والاعتراف بوحدانيته، وتخصيصه بالعبادة، والتوكل عليه، وآمن باليوم الآخر الذي يحاسب الله فيه العباد، ويجزي فيه بالثواب للمحسنين وبالعقاب للمسيئين، وأقام الصلاة المفروضة على الوجه المستكمل لأركانها وشروطها وتدبر تلاوتها وأذكارها، وخشوع القلب لله وخشيته، وآتى الزكاة لمستحقيها المعروفين كالفقراء والمساكين وأبناء السبيل، ﴿وَلَمْ يَخْشَ﴾ في قوله وعمله إلا الله وحده، دون غيره من الأصنام والعظماء الذين لا ينفعون ولا يضررون في الحقيقة، وإنما النفع والضرب يد الله. أما إنه لم يذكر الإيمان بالرسول فلا أنه

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٠/ ١٣٨.

(١) التفسير المنير، الزحيلي ١٠/ ١٣٥.

ثانيًا: بيوت الأنبياء:

ذكرت بيوت الأنبياء في سياقات متعددة، وسيتم الحديث أولاً عن بيوت النبي محمد صلى الله عليه وسلم ثم بيوت غيره من الأنبياء فيما يأتي:

١. بيوت النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

ذكر القرآن بيوت النبي محمد صلى الله عليه وسلم في سياقات مختلفة كما يأتي:

قال تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنفال: ٥].

والإخراج من البيت: هو الإخراج المعين الذي خرج به النبي صلى الله عليه وسلم غازيًا إلى بدر.

والمعنى: أن الله أمره بالخروج إلى المشركين ببدر أمرًا موافقًا للمصلحة في حال كراهة فريق من المؤمنين ذلك الخروج (٤).

❖ في سياق الآداب الواجبة معها.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَبِزٍ لَكُمْ وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُؤْذَنُونَ لَأَنْتُمْ فِيهَا كَاذِبُونَ﴾ [النساء: ٣٤].

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/٢٦٣، وانظر: النكت والعيون، الماوري ٢/٢٩٥.

المشرك؛ لأن قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ يتناول المشرك؛ لأنه تعالى قال: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ أَظْلَمُ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

فإذا كان الساعي في تخريبه في أعظم درجات الفسق وجب أن يكون الساعي في عمارته في أعظم درجات الإيمان (١).

وقد ورد ذكر بيوت الله التي هي المساجد في السنة النبوية، وذلك فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من تطهر في بيته، ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ليقضي فريضة من فرائض الله، كانت خطواته إحداها تحط خطيئته، والأخرى ترفع درجة) (٢).

وفيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أيضًا قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده) (٣).

(١) مفاتيح الغيب ٤/١٣.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب المشي إلى الصلاة، تمحى به الخطايا، وترفع به الدرجات، رقم ٤٦٢/١، ٦٦٦.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، رقم ٢٦٩٩، ٤/٢٠٧٤.

فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَعِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَلُّوهُنَّ مِنْ بَيْنِ يَدَيْكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾

[الأحزاب: ٥٣].

وقد تضمنت الآية - فيما يتعلق بالبيوت - حكمين:

الحكم الأول: النهي عن دخول بيوت النبي صلى الله عليه وسلم في كل الأحوال إلا بالإذن لتناول طعام، غير منتظرين وقت نضجه، والمعنى: فيا أيها الذين آمنوا أو صدقوا بالله ورسوله لا تدخلوا بيتاً من بيوت النبي صلى الله عليه وسلم في كل الأحوال إلا بالإذن لتناول طعام، غير منتظرين وقت نضجه، فإذا نضج فادخلوا، إذا دعيت، فإذا تناولتم الطعام فانتشروا في الأرض غير مستأنسين أو مشتغلين بلهو الحديث، إن دخولكم بيت النبي واشتغالكم بالحديث قبل نضج الطعام كان يؤذي النبي، وإيذاؤه حرام، وكان النبي يتضايق من ذلك، ويكره أن ينهاكم عن ذلك من شدة حياؤه صلى الله عليه وسلم، والله لا يستحيي من بيان الحق، وهو الأمر بالخروج من البيت، ومنع البقاء فيه، وهذا أدب عام يشمل النبي صلى الله

عليه وسلم وسائر المؤمنين^(١).

الحكم الثاني: النهي عن النظر إلى زوجات النبي صلى الله عليه وسلم، والمعنى: فكما نهيتكم عن الدخول إلى بيوت النبي صلى الله عليه وسلم من غير إذن، ودون انتظار نضج الطعام، كذلك نهيتكم عن النظر إلى زوجات النبي صلى الله عليه وسلم فإذا طلبتم منهن شيئاً من الأمتعة، كالمواعين وسائر مرافق الدين والدنيا، فاطلبوه من وراء حجاب ساتر، وذلك الحجاب أطهر وأطيب للنفس، وأبعد عن الريّة، لقلوبكم وقلوبهن، من الهواجس ووساوس الشيطان.

وذلك لأنه لم يصح لكم أن تؤذوا رسول الله وتضايقه، كالبقاء في منزله، والاشتغال بالحديث، وانتظار نضج الطعام، ويحرم عليكم أبداً الزوج بنسائه بعد الفراق بموت أو طلاق، تعظيماً له، إن إيذاء صلى الله عليه وسلم وزواج نسائه من بعده ذنب عظيم وإثم كبير، والبعد عن الإيذاء سراً وعلناً مطلوب، فإنكم إن تظهروا شيئاً من الأذى أو تكتموه، فإن الله تام العلم به، يعلم السرائر والخفايا، والظواهر والأحوال كلها.

ثم استثنى الله من حكم حجاب أزواج النبي: المحارم، فلا إثم ولا حرج على

(١) الوسيط، الزحيلي ٣/٢٠٨٢، وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/٣٩٩، تفسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٧٠.

زوجات النبي صلى الله عليه وسلم في ترك الحجاب أمام الآباء والأبناء، بسبب النسب أو الرضاع، والإخوة وأبناء الإخوة والأخوات، وأمام النساء المؤمنات، والأرقاء من الذكور والإناث، بعداً عن الحرج والمشقة في ذلك بسبب الخدمة، ودخل الأعمام في الآباء^(١).

❁ في سياق ذكر أمهات المؤمنين.

قال تعالى: ﴿يَنْسَأَ النَّبِيُّ لَسَنًا كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتَ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ۚ﴾ وَقُرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۚ﴾ وَأَذْكُرَنَّ مَا بُنِيَ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ بَيْتِ اللَّهِ وَالْحَكَمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ [الأحزاب: ٣٢-٣٤].

هذه آداب أمر الله تعالى بها نساء النبي صلى الله عليه وسلم، ونساء الأمة تبع لهن في ذلك، فقال تعالى مخاطباً لنساء النبي صلى الله عليه وسلم بأنهن إذا اتقين الله عز وجل كما أمرهن، فإنه لا يشبههن أحد من النساء ولا يلحقهن في الفضيلة والمنزلة. ثم قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ قال السدي وغيره: يعني بذلك ترقيق الكلام إذا

خاطبن الرجال، ولهذا قال تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ أي: دغل ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ قال ابن زيد: قولاً حسناً جميلاً معروفاً في الخير، ومعنى هذا: أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم، أي: لا تخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها^(٢).

وفي قوله تعالى: ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ ثلاثة أقاويل:

أحدها: أنه عنى علياً وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم، قاله أبو سعيد الخدري وأنس بن مالك وعائشة وأم سلمة رضي الله عنهم.

الثاني: أنه عنى أزواج النبي صلى الله عليه وسلم خاصة، قاله ابن عباس وعكرمة.

الثالث: أنها في الأهل والأزواج، قاله الضحاك^(٣).

وقد اختلف الفقهاء والمفسرون في أهل البيت المذكورين في الآية على أقوال، والراجح والصحيح منها: أنهم الذين حرمت عليهم الصدقة، وهم: بنو هاشم، وبنو عبد المطلب، أو بنو هاشم خاصة، أو بنو هاشم ومن فوقهم إلى غالب؛ وهذا القول هو اختيار الجمهور والأكثرين من العلماء، ولا شك أن بعضهم أخص بكونه من آل

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٦٣.

(٣) النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٤٠١.

(١) الوسيط، الزحيلي ٣/ ٢٠٨٣.

٢. بيوت غيره صلى الله عليه وسلم من الأنبياء.

ذكر القرآن الكريم بيت نوح عليه السلام في سياق الدعاء.

قال تعالى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا بَارًا﴾ [نوح: ٢٨].

فقد ذكر المفسرون في معنى بيتي المذكور في الآية: بيتي منزلي، وقيل: مسجدي، فيما قال ابن عباس وجمهور المفسرين، وقيل: سفيتي^(٥). وقال ابن عباس أيضا: بيته: شريعته ودينه استعار لها بيتًا، كما يقال: قبة الإسلام، وفسطاط الدين^(٦).

بيت إبراهيم عليه السلام. قال سبحانه: ﴿قَالُوا أَنْعَجِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ [هود: ٧٣] يعني قالت الملائكة لسارة ﴿أَنْعَجِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ معناه: لا تعجبي من ذلك، فإن الله سبحانه وتعالى قادر على كل شيء، فإذا أراد شيئًا كان سريعًا ﴿رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ يعني: بيت إبراهيم عليه السلام، وهذا على معنى الدعاء من الملائكة لهم بالخير والبركة، وفيه دليل على أن أزواج

البيت من بعض، فعلي، وفاطمة، والحسن، والحسين: أخص من غيرهم^(١)، وكذلك زوجاته صلى الله عليه وسلم يدخلن دخولًا أوليًا، قال ابن عطية: «والذي يظهر إلي أن زوجاته لا يخرجن عن ذلك البتة، فأهل البيت زوجاته وبنته وبنوها وزوجها، وهذه الآية تقضي أن الزوجات من أهل البيت؛ لأن الآية فيهن والمخاطبة لهن»^(٣).

وقال الشوكاني - بعد أن ذكر تلك الأقوال -: «أما الزوجات فلكونهن المرادات في سياق هذه الآيات، ولكونهن الساكنات في بيوته صلى الله عليه وسلم النازلات في منازلهن، ويعضد ذلك ما تقدم عن ابن عباس وغيره، وأما دخول علي وفاطمة والحسن والحسين فلكونهن قرابته وأهل بيته في النسب، ويؤيد ذلك ما ذكرناه من الأحاديث المصرحة بأنهم سبب النزول، فمن جعل الآية خاصة بأحد الفريقين فقد أعمل بعض ما يجب إعماله، وأهمل ما لا يجوز إهماله، وقد رجح هذا القول جماعة من المحققين منهم القرطبي، وابن كثير، وغيرهما»^(٤).

(١) انظر: الوسيط، الواحدي ٢/ ٤٦٠، لباب التأويل، الخازن ٤/ ٩٨، بيان المعاني، العاني ٣٧/ ٤.

(٢) انظر في بقية الأقوال وأدلتها: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٨٤، فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٣٢٣.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٤.

(٤) فتح القدير ٤/ ٣٢٣.

(٥) انظر: الكشف، الزمخشري ٤/ ٦٢١.

(٦) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٣٧٧.

من الخوف^(٥)، وقال عكرمة، عن ابن عباس: واجعلوا بيوتكم مساجد^(٦).

ثالثاً: بيوت المؤمنين:

ذكرت بيوت المؤمنين في سياقات متعددة يمكن بيانها فيما يأتي:

✽ في سياق الهجرة.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَاً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ [النساء: ١٠٠].

✽ في سياق الأكل في البيوت.

قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ حَلَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ مَلَائِكْتِكُمْ مَفْصَحَةً أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَخَيْرٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ بَيِّنَ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور: ٦١].

الرجل من أهل بيته ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ﴾ يعني: هو المحمود الذي يحمد على أفعاله كلها، وهو المستحق لأن يحمد في السراء والضراء والشدة والرخاء، فهو محمود على كل حال ﴿حَمِيدٌ﴾ ومعناه: المنيع الذي لا يرام، وقال الخطابي: المجيد الواسع الكرم^(١).

✽ ذكر القرآن الكريم بيت لوط عليه السلام.

قال تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِي رُءُوسِهِمْ أَنَا إِلَهُ الْإِنْسَانِ وَالْجَبِّ وَالْبَرِّ وَالْكَافَّةِ أُولَئِكَ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [الذاريات: ٣٦].

أي: لوطاً عليه السلام وابتتيه^(٢)، وصفهم الله تعالى بالإيمان والإسلام جميعاً؛ لأنه ما من مؤمن إلا وهو مسلم^(٣).

✽ بيت موسى وهارون عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧].

وذلك حين منعهم فرعون الصلاة، فأمرُوا أن يجعلوا مساجدهم في بيوتهم، وأن يوجهوها نحو القبلة^(٤).

وقال الزجاج: صلوا في بيوتكم لتأمنوا

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٤٥٧، لباب التأويل، الخازن ٢/ ٤٩٤.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٤٠٥.

(٣) انظر: الوسيط، الواحدي ٤/ ١٧٨.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ١٧٥.

(٥) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٣٠.

(٦) الوسيط، الواحدي ٢/ ٥٥٦.

في البيوت المنحوتة من القوة، فلا تؤثر فيها الأمطار والعواصف، ويسكنون السهول في باقي الفصول للزراعة والعمل.

قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤].

أي: وتذكروا هذه النعم العظام، واشكروها له بتوحيده وإفراده بالعبادة، ولا تتصرفوا فيها تصرف كفران وجحود بفعل ما لا يرضي الله الذي خلقها لكم، فما بالكم بالكفر والعن في الأرض بالفساد^(١).

كما ذكر الله تعالى بيوت الظالمين في مقام العذاب الذي استحقته.

قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٥٢].

قال الطبري: «يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ﴾ فتلك مساكنهم خاوية خالية منهم، ليس فيها منهم أحد، قد أهلكهم الله فأبادهم ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ يقول تعالى ذكره: بظلمهم أنفسهم بشركهم بالله، وتكذيبهم رسولهم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: إن في فعلنا بشمود ما قصصنا عليك يا محمد من القصة، لعظة لمن يعلم فعلنا بهم ما فعلنا، من قومك الذين يكذبونك فيما جئتهم به من عند ربك

❁ في سياق آداب دخول البيوت.

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَيْهِمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ٢٧].

رابعاً: بيوت الظالمين:

ذكر الله تعالى بيوت الظالمين في مقام التذكير بنعم الله تعالى.

قال سبحانه: ﴿وَإِذْ كُورُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَخَذُونَ مِنْ سَهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤].

فقد ذكر نبي الله صالح عليه السلام قومه بالنعم التي أنعم الله بها عليهم، والمعنى: أي وتذكروا نعم الله عليكم وإحسانه إليكم، إذ جعلكم خلفاء لعاد في الحضارة والعمران والقوة والبأس، وأنزلكم منازلهم تتخذون من سهولها قصوراً زاهية، ودوراً عالية، بما ألهمكم من حذق في الصناعة، فجعلكم تضربون اللبن وتحرقونه آجراً (الطوب المحرق) وتستعملون الجص، وتجيدون هندسة البناء ودقة النجارة، وتنتحون من الجبال بيوتاً، إذ علمكم صناعة النحت، وآتاكم القوة والجلد.

فقد كانوا يسكنون الجبال في الشتاء لما

(١) انظر: تفسير المراغي ٨/ ١٩٩.

وعبرة^(١).

كما ذكر الله تعالى بيوت الظالمين في مقام تذكير المكذبين برسلمهم وكيف كانت سنة الله تعالى فيمن كان قبلهم وسلك مسلكهم، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ [طه: ١٢٨].

قال ابن جرير الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: أفلم يهد لقومك المشركين بالله، ومعنى يهد: يبين، يقول: أفلم يبين لهم كثرة ما أهلكنا قبلهم من الأمم التي سلكت قبلها التي يمشون في مساكنهم ودورهم، ويرون آثار عقوباتنا التي أحللناها بهم سوء مغبة ما هم عليه مقيمون من الكفر بآياتنا، ويتعظوا بهم، ويعتبروا، وينيبوا إلى الإذعان، ويؤمنوا بالله ورسوله، خوفاً أن يصيبهم بكفرهم بالله مثل ما أصابهم»^(٢).

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: ٢٦].

وقوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْجِدِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ

وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨].

وقوله تعالى: ﴿فَكَانَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَثُرُ مُعْطَلَةٌ وَقَصِرَ مَشِيدُهَا﴾ [٥٥] أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [٥٦] [الحج: ٤٥ - ٤٦].

أي: إن في ذهاب أولئك القوم ودمارهم وما حل بهم بسبب تكذيبهم الرسل، ونجاة من آمن بهم، لآيات وعبراً ومواعظ ودلائل متناظرة تبين أخبار من تقدم كيف كان أمرهم^(٣).

كما ذكر الله تعالى بيوت الظالمين في مقام النفاق وأنها سبب للفرار من الجهاد قال تعالى: ﴿وَلَا قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَأْتِ الْيَثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَنَسْتَنْزِلُ فَرِيقًا مِنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣].

وكذلك ذكر سبحانه بيوت الظالمين بأنها بيوت شهوات وانحلال وخيانة، كما ذكر ذلك في قوله تعالى: ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

وتشير الآية إلى أن اتباع الشهوات

(١) جامع البيان ١٩ / ٤٨٠.

(٢) جامع البيان ١٨ / ٣٩٧.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦ / ٣٣٢.

هؤلاء المشركون لم يغن عنهم حين نزل بهم أمر الله، وحل بهم سخطه أولياؤهم الذين اتخذوهم من دون الله شيئا، ولم يدفعوا عنهم ما أحل الله بهم من سخطه بعبادتهم إياهم^(٢).

قال ابن كثير: «هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله يرجون نصرهم ورزقهم، ويتمسكون بهم في الشدائد، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه، فليس في أيدي هؤلاء من ألهمهم، إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت، فإنه لا يجدي عنه شيئا، فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء، وهذا بخلاف المسلم المؤمن قلبه لله وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباع الشرع، فإنه متمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها لقوتها وثباتها»^(٣).

٢. بيوت النحل.

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ اللَّيْلِ يَوْمًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨].

وقوله: ﴿أَنِ اتَّخِذِي مِنَ اللَّيْلِ يَوْمًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨].

أي: خلايا، وهي الأمكنة التي يضع النحل فيها العسل، ويقال: إنما يضع العسل

وارتكاب الخيانات في البيوت من الظلم، ولهذا قال سبحانه: ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: إنه تعالى لا يفلح الظالمين لأنفسهم والظالمين للناس بخيانة وتعد على الأعراس، لا في الدنيا بلوغ الإمامة والرياسة، ولا في الآخرة بالوصول إلى رضوان الله تعالى ودخول جنات النعيم^(١).

خامساً: بيوت المخلوقات:

إن بيوت المخلوقات من غير بني آدم المذكورة في القرآن هي:

١. بيوت العنكبوت.

قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١].

يقول تعالى ذكره: مثل الذين اتخذوا الآلهة والأوثان من دون الله أولياء يرجون نصرها ونفعها عند حاجتهم إليها في ضعف احتيالهم، وقبح رواياتهم، وسوء اختيارهم لأنفسهم، ﴿كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ﴾ في ضعفها، وقلة احتيالها لنفسها، ﴿كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ﴾ لنفسها، كيما يكنها، فلم يغن عنها شيئا عند حاجتها إليه، فكذاك

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٠ / ٣٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٦ / ٢٥٢.

(١) انظر: تفسير المراغي ١٢ / ١٣٠.

في أجواف الأشجار، وقد يضع على أغصان الأشجار، وقوله: ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ يعني: يبنون، وقد جرت عادة أهلها أنهم يبنون لها الأماكن فهي تأوي إليها بتسخير الله إياها لذلك^(١).

قال الرازي: في تفسير قوله: ﴿أَنْ تَأْخُذَ مِنَ اللَّجَالِ يَوْمًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨].

يقال: وحى وأوحى، وهو الإلهام، والمراد من الإلهام: أنه تعالى قرر في أنفسها هذه الأعمال العجيبة التي تعجز عنها العقلاء من البشر، وبيانه من وجوه: الأول: أنها تبني البيوت المسدسة من أضلاع متساوية، لا يزيد بعضها على بعض بمجرد طباعها، والعقلاء من البشر لا يمكنهم بناء مثل تلك البيوت إلا بالآلات وأدوات مثل المسطر والفرجار، والثاني: أنه ثبت في الهندسة أن تلك البيوت لو كانت مشكلة بأشكال سوى المسدسات فإنه يبقى بالضرورة فيما بين تلك البيوت فرج خالية ضائعة، أما إذا كانت تلك البيوت مسدسة فإنه لا يبقى فيما بينها فرج ضائعة، فإهداء ذلك الحيوان الضعيف إلى هذه الحكمة الخفية والدقيقة اللطيفة من الأعاجيب، والثالث: أن النحل يحصل فيما بينها واحد يكون كالرئيس للبقية، وذلك الواحد يكون أعظم جثة من الباقي، ويكون

نافذ الحكم على تلك البقية، وهم يخدمونه ويحملونه عند الطيران، وذلك أيضًا من الأعاجيب، والرابع: أنها إذا نفرت من وكرها ذهبت إلى موضع آخر، فإذا أرادوا عودها إلى وكرها ضربوا الطنبور والملاهي وآلات الموسيقى، وبواسطة تلك الألحان يقدر على ردها إلى وكرها، وهذا أيضًا حالة عجيبة، فلما امتاز هذا الحيوان بهذه الخواص العجيبة الدالة على مزيد الذكاء والكياسة، وكان حصول هذه الأنواع من الكياسة ليس إلا على سبيل الإلهام، وهي حالة شبيهة بالوحي، لا جرم، قال تعالى في حقها: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذْ مِنَ اللَّجَالِ يَوْمًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨]^(٢).

النظرة العلمية: إن بعض العلماء الذين كرسوا جهودهم لدراسة حياة الحشرات وقفوا على حقائق عجيبة وألفوا مئات الكتب التي أثبتت صحة ما جاء في القرآن من أن هناك فصائل برية من النحل تسكن الجبال وتتخذ من مغاراتها مأوى لها، وأن منه سلالات تتخذ من الأشجار سكنًا بأن تلجأ إلى الثقوب الموجودة في جذوع الأشجار وتتخذ منها بيوتًا تأوي إليها، ولما أراد الإنسان أن يتتبع بعسل النحل استأنسها وصنع لها خلايا من الطين أو الخشب

(١) تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ١٨٥.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٠/ ٢٣٦.

أن سليمان ملك عادل لابغي فيه ولا جور فيه، ولئن علم بها لم توطأ، ويقال: وهم لا يشعرون يعني: جنوده خاصة؛ لأنه علم أن سليمان يعلم بمكانه ويتعاهده ﴿فَتَبَسَّ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ كما يكون ضحك الأنبياء عليهم السلام، وإنما ضحك من ثنائها على سليمان بعدله في ملكه، يعني: أنه لو شعر بكم لم يحطمنكم. ويقال: فتبس ضاحكاً أي: متعجباً ويقال: فرحاً بما أنعم الله تعالى عليه (٢).

يعيش فيها، وهكذا تبين الآية الكريمة كيف كانت هذه الحشرات بإلهام من الله تأوى إلى مساكنها المختلفة منذ القدم إلى يومنا هذا (١).

٣. بيوت النمل.

قال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ١٧﴾ حَقَّ إِذَا اتَّوَا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأْتِيهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ١٨﴾ فَتَبَسَّ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَى وَطَنٍ وَلِدُنَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ١٩﴾ [النمل: ١٧-١٩].

وقد ذكر الله تعالى بيوت النمل في سياق الملك العظيم الذي وهبه لنبيه سليمان عليه السلام، والمعنى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأْتِيهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ﴾ يعني: في بيوتكم، ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ أي: لا يهلكنكم، ويقال: لا يكسرنكم سليمان وجنوده بأن يظلموكم، وإنما خاطبهم بقوله ﴿ادْخُلُوا﴾ بخطاب العقلاء؛ لأنه حكى عنهم ما يحكى عن العقلاء، ثم قال: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يعني: قوم سليمان لا يشعرون بكم، ولو كانوا يشعرون بكم، لا يحطمونكم؛ لأنهم علموا

(٢) تفسير السمرقندي ٥٧٦/٢.

وانظر: الهداية، مكي بن أبي طالب ٥٣٨٦/٨.

(١) القرآن وإعجازه العلمي، محمد إسماعيل إبراهيم ص ١٥١.

الخروج من البيت ابتغاء مرضاة الله

إن الهجرة والخروج من البيوت ابتغاء لمرضات الله تعالى يكون في أمور، منها: الهجرة، والجهاد في سبيل الله تعالى، والسفر المباح، ويان ذلك في النقاط الآتية:

أولاً: الهجرة:

الهجرة هي: الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام، وكانت فرضاً في أيام النبي صلى الله عليه وسلم، وهذه الهجرة باقية مفروضة إلى يوم القيامة، والتي انقطعت بالفتح: هي القصد إلى النبي صلى الله عليه وسلم حيث كان، فإن بقي في دار الحرب، ولم يهاجر عصى^(١).

وفي الهجرة ترك البيوت ابتغاء مرضاة الله تعالى.

قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ١٠٠﴾

[النساء: ١٠٠].

أي: إن من يهاجر في سبيل الله، أي: لقصد رضاه وإقامة دينه كما يجب وكما يحب الله تعالى، يجد في الأرض سبيلاً يرغم به أنوف من كانوا مستضعفين له، ومأوى يصيب فيه الخير والسعة فوق

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٦/ ٦٠٠.

النجاة من الاضطهاد والذل، وفي هذا وعد للمهاجرين في سبيله بتسهيل سبل العيش لهم وإرغامهم أعداءهم والظفر بهم^(٢).

كما وعد من يموت في الطريق قبل وصوله دار الهجرة بالأجر العظيم الذي ضمنه له عز وجل إذا كان يقصد بهجرته رضا الله ونصرة رسوله في حياته، وإقامة سنته بعد وفاته، وكان مستحقاً لهذا الأجر ولو مات بعد أن تجاوز عتبة الباب ولو لم يصب تعباً ولا مشقة، فإن نية الهجرة مع الإخلاص كافية لاستحقاقه له، كما في حديث عمر رضي الله عنه (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى)^(٣).

وفي إبهام هذا الأجر وجعله حقاً واجباً عليه تعالى إيدان بعظم قدره وتأكيد ثبوته ووجوبه، ولله تعالى أن يوجب على نفسه ما يشاء، وليس لغيره أن يوجب عليه شيئاً، إذ لا سلطان فوق سلطانه.

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠]

أي: وكان شأن الله الغفران أزلاً وأبداً لأمثال هؤلاء المهاجرين الذين دعاهم إيمانهم لترك أوطانهم لإقامة دينه واتباع سبيله، والرحمة

(٢) تفسير المراغي ٥/ ١٣٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم ١، ٦/١، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب قوله صلى الله عليه وسلم: «إنما الأعمال بالنية»، رقم ١٩٠٧، ٣/ ١٥١٥.

عنى بقوله: (وسعة)، بعض معاني (السعة) التي وصفنا، فكل معاني (السعة) التي هي بمعنى الروح والفرج مما كانوا فيه من ضيق العيش، وغم جوار أهل الشرك، وضيق الصدر بتعذر إظهار الإيمان بالله وإخلاص توحيده وفراق الأنداد والآلهة، داخل في ذلك»^(٤).

والهجرة ابتغاء مرضات الله تعالى هي سنة النبيين عليهم، فقد هاجر نبي الله إبراهيم ولوط عليهما السلام.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّنْ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٥) [العنكبوت: ٢٦].

فقد خرج إبراهيم عليه السلام من أرض العراق مهاجرًا إلى ربه، وخرج معه لوط عليه السلام وسارة، فخرج يلتمس الفرار بدينه والأمان على عبادة الله حتى نزل حران من دمشق، فمكث بها ما شاء الله أن يمكث، ثم خرج منها مهاجرًا حتى قدم مصر، ثم خرج من مصر إلى الشام ونزل بلاد السبع من أرض فلسطين، ونزل لوط عليه السلام بالمؤتفكة، وهي من السبع على مسيرة يوم وليلة وأقرب من ذلك، فبعثه الله سبحانه نبيًا^(٥).

يقول تعالى مخبرًا عن إبراهيم أنه آمن له

الشاملة لهم بعطفه وإحسانه^(١).

واختلف المفسرون في معنى المراغم المذكورة في الآية: فقال بعضهم: هو التحول من أرض إلى أرض، وقال آخرون: مبتغى معيشة، وقال آخرون: المراغم، المهاجر^(٢)، وقال مجاهد: المرغم: المترشح، وقال الكسائي: المراغم: المذهب.

قال أبو جعفر النحاس: «وهذه الأقوال متفقة المعاني فالمرغم هو المذهب والمتحول في حال هجرة، وهو اسم للموضع الذي يراغم فيه، وهو مشتق من الرغام، ورغم أنف فلان، أي: لصق بالتراب، وراغمت فلانًا هجرته وعاديته»^(٣).

أما السعة فقال أبو جعفر بعد أن ذكر أقوال المفسرين في معنى السعة: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبر أن من هاجر في سبيله يجد في الأرض مضطربًا ومتسعًا، وقد يدخل في «السعة»، السعة في الرزق، والغنى من الفقر، ويدخل فيه السعة من ضيق الهم والكرب الذي كان فيه أهل الإيمان بالله من المشركين بمكة، وغير ذلك من معاني (السعة)، التي هي بمعنى الروح والفرج من مكروه ما كره الله للمؤمنين بمقامهم بين ظهري المشركين وفي سلطانهم. ولم يضع الله دلالة على أنه

(١) تفسير المراغي ٥/ ١٣٥.

(٢) جامع البيان، الطبري ٩/ ١١٩.

(٣) إعراب القرآن، النحاس ١/ ٢٣٥.

(٤) جامع البيان ٩/ ١٢٢.

(٥) الكشف والبيان، الثعلبي ٦/ ٢٨٣.

من مصر ﴿قَالَ عَسَىٰ نَفِثَ أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ
التَّسْوِيلِ﴾ [القصص: ٢٢].

أي: قصد الطريق إلى مدين^(٣).

والهجرة بترك البيوت هي كذلك سنة
سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿إِلَّا تَضُرُّوهُ فَقَدْ
نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا
ثَاقِبَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْفَارِ إِذْ يَقُولُ
لِيَصْرِفَهُ لَا تَحْزَنَ إِنَّا اللَّهُ مَعَنَا
فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ
بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ
الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةَ
اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾

[التوبة: ٤٠].

وفي الآية إخبار بهجرة رسول إلى
المدينة وتركه مكة وبيته فيها ابتغاء مرضات
الله تعالى.

والمعنى: إلا تنصروه أي: تنصروا رسوله
فإن الله ناصره ومؤيده وكافيه وحافظه، كما
تولى نصره إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين
في عام الهجرة لما همّ المشركون بقتله أو
حبسه أو نفيه، فخرج منهم هارباً بصحبة
صديقه وصاحبه أبي بكر بن أبي قحافة
رضي الله عنه، فلجأ إلى غار ثور ثلاثة أيام
ليرجع الطلب الذين خرجوا في آثارهم، ثم
يسيروا نحو المدينة، فجعل أبو بكر رضي

(٣) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٥٢٨.

لوط عليه السلام، يقال: إنه ابن أخي إبراهيم
عليه السلام، ولم يؤمن به، من قومه سواء
وسارة امرأة إبراهيم الخليل، ثم أخبر عنه
عليه السلام بأنه اختار المهاجرة من بين
أظهرهم ابتغاء إظهار الدين والتمكن من
ذلك، ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾
أي: له العزة ولرسوله وللمؤمنين به،
الحكيم في أقواله وأفعاله وأحكامه القدريّة
والشرعية^(١).

وكذلك فعل نبي الله موسى عليه السلام
فقد خرج من مصر، خائفاً يترقب، أي: ينتظر
الطلب، قال: رب نجني من القوم الظالمين
الكافرين، قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ
قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ
تَلَقَّاهُ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ
التَّسْوِيلِ ﴿٦٢﴾﴾ [القصص: ٢١-٢٢].

أي: سلك الطريق التي يلقي مدين^(٢)
فيها، وكانت مدين على مسيرة ثمانية أيام

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٤٦.

(٢) مدين: اسم بلاد ذكر في القرآن، وكانت
تمثل إقليمًا كبيرًا وواسعًا، وكانت تقع
في شمال غرب الجزيرة العربية بين تبوك
والبحر الأحمر، وتعرف اليوم باسم: البدع،
وهي بلدة بين تبوك وساحل البحر الأحمر
على بعد ١٣٢ كيلاً غرب تبوك، وشرق رأس
الشيخ حميد، على البحر، بمسافة ٧٠ كيلاً،
وهي تابعة لمنطقة تبوك التي تقع شمال غرب
المملكة العربية السعودية.

انظر: معجم المعالم الجغرافية، عاتق البلادي
ص ٢٨٤، أطلس تاريخ الأنبياء والرسول،
سامي الملوغوث ص ١٣٩.

عليك.

﴿وَإِنَّ قَرِيبًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ﴾ فيه

وجهان:

أحدهما: كارهون خروجك.

الثاني: كارهون صرف الغنيمة عنهم؛

لأنهم لم يعلموا أن الله تعالى قد جعلها لرسوله صلى الله عليه وسلم^(٣).

وقد أمر الله تعالى بالخروج من البيوت والمنازل للجهاد الواجب وتوعد من لم يخرج بالعذاب الأليم والاستبدال بقوم يخرجون للجهاد.

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْخُذْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا نَفِرُوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [التوبة: ٣٨-٣٩].

وهذه الآية حث من الله جل ثناؤه المؤمنين به من أصحاب رسوله صلى الله عليه وسلم على الجهاد وغزو الروم، وذلك غزوة رسول الله صلى الله عليه وسلم تبوك، والمعنى: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله ﴿مَا لَكُمْ﴾، أي: شيء أمركم ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، أي: إذا قال

(٣) النكت والعيون، الماوردى ٢/ ٢٩٥.

الله عنه يجرع أن يطلع عليهم أحد فيخلص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم أذى، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يسكنه ويثبته ويقول: (يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما)^{(١)(٢)}.

ثانيًا: الجهاد:

إن في الجهاد تركًا للبيوت ابتغاء مرضات الله تعالى، كما قال تعالى عن رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ قَرِيبًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ﴾ [الأفقال: ٥].

وفي قوله عز وجل: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ قولان:

أحدهما: كما أخرجك ربك من مكة إلى المدينة بالحق مع كراهة فريق من المؤمنين، كذلك ينجز وعدك في نصرك على أعدائك بالحق.

والثاني: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ﴾ من المدينة إلى بدر بالحق، كذلك جعل لك غنيمة بدر بالحق.

وفي قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ وجهان:

أحدهما: أنك خرجت ومعك الحق.

الثاني: أنه أخرجك بالحق الذي وجب

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، رقم ٢٣٨١، ٤/ ١٨٥٤، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٣٦.

لكم رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ﴿انْفِرُوا﴾، أي: اخرجوا من منازلكم إلى مغزاكم، وأصل النفر، مفارقة مكان إلى مكان لأمر هاجه على ذلك^(١).

وقد أمر الله تعالى بالخروج من البيوت للجهاد في كل الأحوال والظروف.

قال تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١].

قوله: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أي: شبيهاً وشباناً^(٢)، وموسرين ومعسرين، خفت عليكم الحركة أو ثقلت، ركبانا ومشاة^(٣).

قال الإمام البغوي: «قوله تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، قال الحسن والضحاك ومجاهد وقتادة وعكرمة: شبانا وشيوخا، وعن ابن عباس: نشاطا وغير نشاط، وقال عطية العوفي: ركبانا ومشاة، وقال أبو صالح: خفافا من المال، أي: فقراء، وثقالا أي: أغنياء، وقال ابن زيد: الثقل الذي له الضيعة، فهو ثقل يكره أن يضع ضيعته، والخفيف الذي لا ضيعة له، ويروى عن ابن عباس قال: خفافا أهل الميسرة من المال وثقالا أهل العسرة، وقيل: خفافا من السلاح، أي: مقلين منه،

(١) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٢٥١.

(٢) المصدر السابق ١٤/ ٢٦٢.

(٣) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٤٤٩.

وثقالا أي: مستكثرين منه، وقال الحكم بن عتيبة: مشاغيل وغير مشاغيل، وقال مرة الهمداني: أصحاب ومرضى، وقال يمان ابن رباب عزابا ومتأهلين، وقيل: خفافا من حاشيتكم وأتباعكم، وثقالا مستكثرين بهم، وقيل: خفافا مسرعين خارجين ساعة سماع النفير، وثقالا بعد التروي فيه والاستعداد له^(٤).

ثم بين سبحانه شرط الخروج من البيوت للجهاد الذي يقصد به ابتغاء مرضات الله بأن لا يتخذ الخارجون أعداء الله تعالى أولياء.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَآيَةً مَرْضَاتِي فُتْرُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَقَعْلَهُ مِنْكُمْ فَقَدْ صَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١].

وجواب الشرط في قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَآيَةً مَرْضَاتِي﴾ محذوف لدلالة ما قبله عليه أي: إن كنتم -أيها المؤمنون- قد خرجتم من مكة من أجل الجهاد في سبيلي، ومن أجل طلب مرضاتي، فاتركوا اتخاذ عدوي وعدوكم أولياء، واتركوا مودتهم ومصافاتهم.

(٤) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٣٥٣.

على الإنسان، ﴿وَسَيَخْلُقُونَ بِاللَّهِ﴾
يعني المنافقين إذا رجعت إليهم: ﴿لَوْ
أَسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ [التوبة: ٤٢] أي:

لو قدرنا وكان لنا سعة في المال، يهلكون
أنفسهم بالكذب والنفاق، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ
إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ٤٢]؛ لأنهم كانوا
يستطيعون الخروج وكانوا مياسير، ذوي
زاد وسلاح وعدة، قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ
عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣] (٣).

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا
الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ
اللَّهُ أُلْعَائِهِمْ فَتَبَرَّهُمْ وَقِيلَ أَقْعُدُوا مَعَ
الْقَاعِدِينَ﴾ (٤) ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ
إِلَّا خَبَالًا وَلَا أَضَعُوهَا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ
الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ٤٦-٤٧].

أي: إن المنافقين لو أرادوا الجهاد
لتأهبوا أهبة السفر، فتركهم الاستعداد دليل
على إرادتهم التخلف ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ
اللَّهُ أُلْعَائِهِمْ﴾ أي: خروجهم معك
﴿فَتَبَرَّهُمْ﴾ أي: حبسهم عنك وخذلهم،
لأنهم قالوا: إن لم يؤذن لنا في الجلوس
أفسدنا وحرصنا على المؤمنين، ويدل
على هذا أن بعده: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا
زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ ﴿وَقِيلَ أَقْعُدُوا مَعَ
الْقَاعِدِينَ﴾ قيل: هو من قول بعضهم

فالمقصود من الجملة الكريمة: زيادة
التهييج للمؤمنين، حتى لا يبقى في قلوبهم
أي شيء من المودة نحو الكافرين (١).

ثم بين سبحانه موقف المنافقين من
الخروج للجهاد بقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ
عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ
بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَخْلُقُونَ بِاللَّهِ لَوْ
أَسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ
يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٥) ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ
أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكِ الْالَّذِينَ صَدَقُوا
وَقَعَلَهُ الْكَاذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٢-٤٣].

والعرض كل ما عرض لك من منافع
الدنيا، فالمعنى: لو كانت غنمة قريبة، أي:
لو كان ما دعوا إليه غنمًا، ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾
أي: سهلًا قريبًا لاتبعوك ﴿وَلَكِنْ بَعُدَتْ
عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾، أي: بعدت عليهم الغاية
التي تقصدها، وكان هذا حين دعوا إلى
غزوة تبوك، فنقل عليهم الخروج إلى نواحي
الشام (٢).

والمعنى: لو كان ما دعوا إليه عرضًا
قريبًا غنمة قريبة، وسفرًا قاصدًا قريبًا هينًا،
لاتبعوك طمعًا في المال ﴿وَلَكِنْ بَعُدَتْ
عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ [التوبة: ٤٢].

المسافة، وقال الكلبي: يعني: السفر
إلى الشام، والشقة السفر البعيد؛ لأنه يشق

(١) الوسيط، طنطاوي ١٤/٣٢٣.

(٢) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/٤٤٩.

(٣) الوسيط، الواحدي ٢/٥٠٠.

لبعض، وقيل: هو من قول النبي صلى الله عليه وسلم، ويكون هذا هو الإذن الذي تقدم ذكره، قيل: قاله النبي صلى الله عليه وسلم غضبًا فأخذوا بظاهر لفظه وقالوا: قد أذن لنا، وقيل: هو عبارة عن الخذلان، أي: أوقع الله في قلوبهم القعود، ومعنى: ﴿مَعَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: مع أولي الضرر والعميان والزمنى والنسوان والصبيان^(١).

ثم ذكر الحكمة في ذلك، فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أي: نقصًا، ﴿وَلَا وَضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ أي: ولسعوا في الفتنة والشر بينكم، وفرقوا جماعتكم المجتمعين: ﴿يَسْغَوْنَ كُمُ الْفِتْنَةَ﴾ أي: هم حريصون على فتنتكم وإلقاء العداوة بينكم. ﴿وَفِيكُمْ﴾ أناس ضعفاء العقول ﴿سَمْعُونَ لَكُمُ﴾ أي: مستجيبون لدعوتهم يغترون بهم، فإذا كانوا هم حريصين على خذلانكم، وإلقاء الشر بينكم، وتثبيطكم عن أعدائكم، وفيكم من يقبل منهم ويستنصحهم. فما ظنك بالشر الحاصل من خروجهم مع المؤمنين، والنقص الكثير منهم، فله أتم الحكمة حيث ثبطهم ومنعهم من الخروج مع عباده المؤمنين رحمة بهم، ولطفًا من أن يداخلهم ما لا ينفعهم، بل يضرهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ فيعلم عباده كيف يحذرونهم، ويبين لهم من

المفاسد الناشئة من مخالطتهم^(٢).

وهؤلاء قال تعالى عنهم: ﴿فَإِنْ رَجَعْتَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَفَذُّوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ [التوبة: ٨٣].

يقول تعالى أمرًا لرسوله صلى الله عليه وسلم، ﴿فَإِنْ رَجَعْتَ اللَّهُ﴾ أي: ردك الله من غزوتك هذه ﴿إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾ قال قتادة: ذكر لنا أنهم كانوا اثني عشر رجلًا ﴿فَاسْتَفَذُّوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ أي: معك إلى غزوة أخرى ﴿فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ أي: تعزيرًا لهم وعقوبة، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْعَادَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]^(٣).

وقوله تعالى: ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ يعني: مع المتخلفين من النساء والصبيان، وقيل: مع المرضى والزمنى، وقال ابن عباس رضي الله عنه: مع الذين تخلفوا بغير عذر، وقيل: مع المخالفين يقال: صاحب خالف إذا كان مخالفًا كثير الخلاف.

وفي الآية دليل على أن الرجل إذا ظهر منه مكروه وخداع وبدعة يجب الانقطاع

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٣٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٦٩.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ١٥٦.

كفروا ﴿٣﴾.

ومن قائل: لا يشترط سفر القرية، بل لا بد أن يكون مباحاً، لقوله: ﴿فَمِنْ أَضْطَرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْرِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣].

كما أباح له تناول الميتة مع الاضطرار بشرط أن لا يكون عاصياً بسفره، وهذا قول الشافعي وأحمد وغيرهما من الأئمة^(٣). وهناك أسفار فيها ترك البيوت ابتغاء مرضات الله تعالى يمكن ذكرها بإيجاز فيما يأتي:

أولاً: سفر العلم، وهو مشهور لدى العلماء؛ لأن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة^(٤).

ثانياً: سفر الحج والعمرة، وسفر الحج واجب على المستطيع، وهو من فروض العين^(٥)، وسفر العمرة مندوب^(٦).

ثالثاً: سفر الكسب والمعاش: فقد يتعذر على الرجل معاشه مع الإقامة، فيخرج في طلبه لا يزيد عليه، ولا ينقص من صيد أو احتطاب أو احتشاش أو استتجار، وهو فرض عليه^(٧)، وهو جائز إذا أراد التوسع

عنه وترك مصاحبته؛ لأن الله سبحانه وتعالى منع المناققين من الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الجهاد، وهو مشعر بإظهار نفاقهم وذمهم وطردهم وإبعادهم؛ لما علم من مكرهم وخداعهم إذا خرجوا إلى الغزوات^(١).

ثالثاً: السفر:

في السفر ترك للبيوت، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَجْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٠١].

والضرب في الأرض هو السفر، قال الله تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْجُؤٌ وَمَأْخُودٌ يَضُرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَنْتَفُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠].^(٢)

قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ أي: تخففوا فيها إما من كميتها بأن تجعل الرباعية ثنائية، كما فهمه الجمهور من هذه الآية، واستدلوا بها على قصر الصلاة في السفر على اختلافهم في ذلك، فمن قائل: لا بد أن يكون سفر طاعة من جهاد، أو حج، أو عمرة، أو طلب علم، أو زيارة، وغير ذلك، كما هو مروي عن ابن عمر وعطاء ويحيى عن مالك في رواية عنه نحوه، لظاهر قوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ

(٣) المصدر السابق ٢/ ٣٤٨.

(٤) أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٦١٣، بيان المعاني، عبد القادر العاني ٤/ ٥٠٠.

(٥) بيان المعاني، عبد القادر العاني ٤/ ٥٠٠.

(٦) أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٦١٣.

(٧) المصدر السابق ١/ ٦١٣.

(١) لباب التأويل، الخازن ٢/ ٣٩١.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٤٢.

بأكثر مما هو فيه، وواجب إذا كان محتاجاً له لنفسه أو لمن يعوله^(١).

رابعاً: سفر التجارة والكسب الزائد على القوت، وذلك جائز بفضل الله سبحانه وتعالى، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨]. أي: التجارة في البيع والشراء^(٢)، يعني التجارة، وهي نعمة من الله بها في سفر الحج، فكيف إذا انفردت^(٣).

خامساً: سفر الزيارة: وسفر الزيارة إما يكون للإخوان في الله^(٤).

ومن الترغيب فيه روى أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: (أن رجلاً زار أخاه في قرية أخرى، فأرصد الله له، على مدرجته، ملكاً فلما أتى عليه، قال: أين تريد؟ قال: أريد أخاً لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تربتها؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله عز وجل، قال: فإني رسول الله إليك، بأن الله قد أحبك كما

أحببته فيه)^(٥)(٦). ومنه قصد البقاع الكريمة، وهو مطلوب لثلاث أماكن، لما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، ومسجد الأقصى)^(٧)(٨).

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب في فضل الحب في الله، رقم ٢٥٦٧، ٤/١٩٨٨.

(٦) بيان المعاني، عبد القادر العاني ٤/٥٠٠.

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، رقم ١١٨٩، ٢/٦٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، رقم ١٣٩٧، ٢/١٠١٤.

(٨) بيان المعاني، عبد القادر العاني ٤/٥٠٠.

وانظر: أحكام القرآن، ابن العربي ١/٦١٢.

(١) بيان المعاني، عبد القادر العاني ٤/٥٠٠.

(٢) جامع البيان، الطبري ٤/١٦٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/٣٥١.

وانظر: الجواهر الحسان، الثعالبي ١/٣٧٤.

(٤) أحكام القرآن، ابن العربي ١/٦١٣.

به مطلقاً»^(٣).

أما الطهارة: فإنها من آداب دخول بيوت الله تعالى، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال: (من تطهر في بيته، ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ليقضي فيه فريضة من فرائض الله كانت خطواته إحداها تحط خطيئة والأخرى ترفع درجة)^(٤)، ما لم يكن الدخول للصلاة أو الطواف بالبيت الحرام، فإنها تكون واجبة.

٢. التيمن في دخول المسجد.

من آداب دخول بيوت الله تعالى أن يدخل على السنة الواردة في دخولها، فقد أخرج البخاري في ذلك قوله: «وكان ابن عمر رضي الله عنه - عند دخول المسجد - يبدأ برجله اليمنى، فإذا خرج بدأ برجله اليسرى، فيه: عائشة رضي الله عنها قالت: (كان النبي يحب التيمن ما استطاع في شأنه كله في طهوره، وترجله، وتنعله)^(٥)».

٣. الدعاء عند الدخول في المسجد والخروج منه.

عن أبي حميد، أو عن أبي أسيد، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا

(٣) البحر المحيط ٥/ ٤١.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب المشي إلى الصلاة تمحي به الخطايا، وترفع به الدرجات، رقم ٦٦٦، ١/ ٤٦٢.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب التيمن في دخول المسجد وغيره، رقم ٤٢٦، ١/ ٩٣.

آداب دخول البيوت

هناك آداب لدخول البيوت سواء أكانت بيوت الله تعالى، أو بيوت النبي صلى الله عليه وسلم أو بيوت سائر المخلوقات من الإنس والعجن، كما سيأتي توضيح ذلك في المطالب الآتية:

أولاً: آداب بيوت الله تعالى:

١. يستحب لدخول بيوت الله تعالى الطهارة، وأخذ الزينة عند كل مسجد.

قال تعالى: ﴿يَبْنَیْ ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]^(١).

قال الزمخشري: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ أي: ريشكم ولباس زينتكم عند كل مسجد، كلما صليتم أو طفتم، وكانوا يطوفون عراة، وعن طاوس: لم يأمرهم بالحرير والديباج، وإنما كان أحدهم يطوف عرياناً ويدع ثيابه وراء المسجد، وإن طاف وهي عليه، ضرب وانتزعت عنه؛ لأنهم قالوا: لا نعبد الله في ثياب أذنبنا فيها^(٢).

وقال أبو حيان: «والذي يظهر أن الزينة هو ما يتجمل به ويتزين عند الصلاة، ولا يدخل فيه ما يستر العورة؛ لأن ذلك مأمور

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٢٢٩.

(٢) الكشف ٢/ ١٠٠.

دخل أحدكم المسجد، فليقل: اللهم افتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج، فليقل: اللهم إني أسألك من فضلك^(١).

٤. تحية المسجد.

يستحب لداخل بيوت الله تعالى أن يركع ركعتين تحية المسجد قبل أن يجلس، وذلك لما رواه أبو قتادة السلمي رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس)^(٢).

والقول بذلك هو مذهب الشافعي وأحمد والجمهور، وذهب قوم مالك والثوري وأصحاب الرأي إلى أنه يجلس ولا يصلي^(٣)، والراجح هو مذهب الجمهور لحديث أبي قتادة السابق فهو نص في المسألة.

أما تحية المسجد الحرام فقد ذكر ابن القيم أن تحية المسجد الحرام الطواف؛ لأنه صلى الله عليه وسلم بدأ فيه بالطواف^(٤)، وتعقب بأنه صلى الله عليه وسلم لم يجلس، إذ التحية إنما تشرع لمن جلس، والداخل

إلى المسجد الحرام يبدأ بالطواف، ثم يصلي صلاة المقام، فلا يجلس إلا وقد صلى، فأما لو دخل المسجد الحرام، وأراد القعود قبل الطواف، فإنه يشرع له أن يصلي التحية^(٥).

والطواف بالبيت ورد في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩].

ومما يؤيد ما ذهب إليه ابن القيم من أن الطواف هو تحية المسجد الحرام ما رواه ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الطواف بالبيت صلاة، إلا أن الله عز وجل قد أحل فيه المنطق، فمن نطق فلا ينطق إلا بخير)^(٦).

٥. عدم رفع الصوت في المسجد.

من آداب دخول بيوت الله تعالى: عدم رفع الصوت في المسجد بغير الذكر، فقد ورد ما يدل على كراهة ذلك فيما رواه السائب بن يزيد رضي الله عنه، قال: كنت قائماً في المسجد فحصبني رجل، فنظرت فإذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: اذهب فأنتي بهذين، فجثته بهما، قال: من

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يقول إذا دخل المسجد، رقم ٧١٣، ١/٤٩٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس، رقم ٤٤٤، ١/٩٦.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٤/١٥.

(٤) زاد المعاد ٢/٢٠٨.

(٥) نيل الأوطار، الشوكاني ٣/٨٥.

(٦) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٥٤٢٣، ١٤٩/٢٤، والنسائي في سننه، كتاب مناسك الحج، باب إباحة الكلام في الطواف، رقم ٢٩٢٢، ٥/٢٢٢.

والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته رقم ٣٩٥٤، ٢/٧٣٣.

الثوم - فلا يقربن مسجدنا^(٤).

ثانيًا: آداب دخول بيت النبوة:

ذكر الله تعالى آداب دخول بيت النبوة في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَظِيرِينَ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مَسْتَنِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وهذه الآداب يمكن إجمالها فيما يأتي:

١. النهي عن دخول بيوت النبي صلى الله عليه وسلم إلا إذا كانت الدعوة لطعام غير منتظرين إدراكه ونضجه.

والمعنى: أيها الذين آمنوا بالله ورسوله لا تدخلوا بيوت نبيه صلى الله عليه وسلم إلا أن تدعوا إلى طعام تطعمونه فلا تدخلوا البيت إلا إذا علمتم أن الطعام قد تم نضجه، وانتهى إعداده، إذ قبل ذلك يكون أهل البيت في شغل عنكم، وقد يلبس ثياب البذلة

أنتم - أو من أين أنتم؟ - قالوا: من أهل الطائف، قال: (لو كنتم من أهل البلد لأوجعتكما، ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم)^(١).

وفيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من سمع رجلاً ينشد ضالة في المسجد فليقل: لا أداها الله إليك، فإن المساجد لم تبين لهذا)^(٢).

٦. المحافظة على نظافة المسجد.

إن المحافظة على نظافة بيوت الله تعالى من البصاق والروائح الكريهة وغيرها من آداب الداخل إليها؛ لما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (البزاق في المسجد خطيئة وكفارتها دفنها)^(٣).

وكذلك ما رواه ابن عمر رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في غزوة خيبر: (من أكل من هذه الشجرة - يعني:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب رفع الصوت في المساجد، رقم ٤٧٠، ١٠١/١.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن نشد الضالة في المسجد وما يقوله من سمع الناشد، رقم ٣٩٧/١، ٥٦٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب كفارة البزاق في المسجد، رقم ٤١٥، ٩١/١.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب ما جاء في الثوم الني والبصل والكراث، رقم ١٧٠/١، ٨٥٣.

والعمل فلا يحسن أن ترونهن وهن على هذه الحال، إلى أنه ربما بدا من إحداهن ما لا يحل النظر إليه^(١).

٢. الانتشار بعد الطعام.

والمعنى: ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ﴿وَلَا مُسْتَقْسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ أي: ولكن إذا دعاكم الرسول صلى الله عليه وسلم فادخلوا البيت الذي أذن لكم بدخوله، فإذا أكلتم الطعام الذي دعيتم إلى أكله فتفرقوا واخرجوا ولا تمكثوا فيه لتبادلوا ألوان الحديث وفنونه المختلفة.

وعلة ذلك ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ أي: إن ذلك اللبث والاستئناس والدخول على هذا الوجه كان يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم، لأنه كان يمنعه من قضاء بعض حاجاته، إلى ما فيه من تضيق المنزل على أهله، لكنه كان يستحيي من إخراجكم ومنعكم مما يؤذيه، والله لم يترك الحق وأمركم بالخروج.

وفي هذا إيماء إلى أن اللبث يحرم على المدعو إلى طعام بعد أن يطعم إذا كان في ذلك أذى لرب البيت، ولو كان البيت غير بيت النبي صلى الله عليه وسلم، فالثقل مذموم في كل مكان، محقر لدى كل

إنسان^(٢).

٣. سؤال نساء النبي متاعاً من وراء حجاب.

فإذا سألتهم أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ونساء المؤمنين اللواتي لسن لكم بأزواج، شيئاً تتمتعون به من ماعون وغيره فاطلبوا منهم ذلك من وراء ستر بينكم وبينهن.

﴿ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ أي: ذلك الدخول بالإذن وعدم الاستئناس للأحاديث أطهر لقلوبكم وقلوبهن من وسوس الشيطان والريب؛ لأن العين رسول القلب، فإذا لم تر العين لم يشته القلب، فالقلب عند عدم الرؤية أطهر، وعدم الفتنة^(٣).

ثالثاً: آداب بيوت سائر المخلوقات:

هناك آداب في دخول بيوت المخلوقين من الإنس والجن:

١. أن يكون الدخول على سنة الإسلام، وهو الإتيان من أبواب البيوت لا من ظهورها.

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا

(٢) المصدر السابق ٢٢ / ٢٩.

(٣) المصدر السابق ٢٢ / ٣٠.

(١) تفسير المراغي ٢٢ / ٢٨.

وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾

[البقرة: ١٨٩].

عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾

[النور: ٢٧].

ففي الآية هذه آداب شرعية، أدب الله بها عباده المؤمنين، وذلك في الاستئذان فقد أمرهم أن لا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم حتى يستأنسوا، أي: يستأذنوا قبل الدخول، ويسلموا بعده، وينبغي أن يستأذن ثلاث مرات، فإن أذن له وإلا انصرف (٢).

﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

[النور: ٢٧].

يقول: استئناسكم وتسليمكم على أهل البيت الذي تريدون دخوله، خير لكم؛ لأنكم لا تدرّون أنكم إذا دخلتموه بغير إذن، على ماذا تهجمون؟ على ما يسوؤكم أو يسركم؟ وأنتم إذا دخلتم بإذن، لم تدخلوا على ما تكرهون، وأديتم بذلك أيضًا حق الله عليكم في الاستئذان والسلام، وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ يقول: لتذكروا بفعلكم ذلك أوامر الله عليكم، واللازم لكم من طاعته، فتطيعوه (٣).

٣. السلام.

فمن دخل دارًا وجب عليه أن يسلم على الحاضرين، قال تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ سَلَامًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَرَكََةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ

فقد كان قوم من قريش وجماعة معهم من العرب إذا خرج الرجل منهم في حاجة فلم يقضها ولم تتيسر له رجوع، فلم يدخل من باب بيته سنة، يفعل ذلك تطيرًا، فأعلمهم الله عز وجل أن ذلك غير بر، أي: الإقامة على الوفاء بهذه السنة ليس ببر، وقال الأكثر من أهل التفسير: إنهم الحمس، وهم قوم من قريش، وبنو عامر بن صعصعة وثقيف وخزاعة، كانوا إذا أحرموا لا يأقطنون الأقط، ولا ينفون الوبر ولا يسلمون السمن، وإذا خرج أحدهم من الإحرام لم يدخل من باب بيته، وإنما سموا الحمس لأنهم تحمسوا في دينهم، أي: تشددوا.

وأعلمهم أن البر التقي، فقال: ﴿وَلَكِنْ الْبِرُّ مِنَ اتَّقَىٰ﴾ والمعنى: ولكن البر من اتقى مخالفة أمر الله عز وجل، فقال: ﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ فأمرهم الله بترك سنة الجاهلية في هذه الحماسة (١)، ومن ثم أصبح إتيان البيوت من أبوابها هو السنة والأدب الذي ينبغي في إتيانها.

٢. الاستئذان.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٣.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٤٩.

(١) معاني القرآن وإعراجه، الزجاج ١/ ٢٦٢.

وانظر: البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٢٣٧.

اللَّهُ لَكُمْ آيَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾

[النور: ٦١].

ويدل على وجوب السلام ما يأتي:

الأول: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَسَلِّمُوا عَلَيْهَا﴾ [النور: ٢٧].

ولما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أفشوا السلام بينكم) والأمر للوجوب^(١).

الثاني: أن من دخل على إنسان كان كالطالب له، ثم المدخول عليه لا يعلم أنه يطلبه لخير أو لشر، فإذا قال: السلام عليك، فقد بشره بالسلامة وآمنه من الخوف، وإزالة الضرر عن المسلم واجبة، قال صلى الله عليه وسلم: (المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه)^(٢) فوجب أن يكون السلام واجبا، الثالث: أن السلام من شعائر أهل الإسلام، وإظهار شعائر الإسلام واجب، وأما المشهور فهو أن السلام سنة، وهو قول

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، رقم ٧٤/١، ٥٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، رقم ١٠، ١١/١، من حديث عبد الله ابن عمرو رضي الله عنه، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام، وأي أموره أفضل، رقم ٤١، ٦٥/١، من حديث جابر رضي الله عنه.

ابن عباس والنخعي^(٣).

والسلام واجب في دخول عموم البيوت قال تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور: ٦١].

فيجب السلام عند الدخول على أهل والأقارب في البيوت المسكونة، وكذا غير المسكونة، فيسلم المرء فيها على نفسه بأن يقول: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، وكذا المساجد، فيسلم على من كان فيها، فإن لم يكن في المساجد أحد، فالسلام أن يقول المرء: السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، قاله إبراهيم النخعي والحسن البصري عن آية: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا﴾ أراد: المساجد^(٤).

قال ابن العربي: «القول بالعموم في البيوت هو الصحيح، ولا دليل على التخصيص»^(٥)، «وبيانه أن الله سبحانه قال في الآية الأولى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَسَلِّمُوا عَلَيْهَا﴾ [النور: ٢٧].

فنص على بيوت الغير، ثم قال في هذه الآية الثانية: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/١٦٣.

(٤) التفسير المنير، الزحيلي ١٨/٣٠٩.

(٥) أحكام القرآن ٣/٤٢٧.

أَنْفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١].

أي: ليسلم بعضكم على بعض، وأطلق القول؛ لأنه قد بين الحكم في بيوت الغير، ليدخل تحت هذا العموم كل بيت، كان للغير أو لنفسه، وقال: ﴿عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١]. ليتناول اللفظ سلام المرء على عينه، وليأخذ المعنى سلام الناس بعضهم على بعض، فإذا دخل بيتاً لغيره استأذن، وإن دخل بيتاً لنفسه سلم، كما ورد في الحديث يقول: (السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين)؛ قاله ابن عمر، وهذا إذا كان فارغاً.

فأما إذا كان فيه أهله وعياله وخدمه فليقل: السلام عليكم، فإنهم أهل للتحية منه، وإن كان مسجداً فليقل كما جاء في الحديث: (السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين)^(١)، وعليه حمل ابن عمر البيت الفارغ.

والذي اختاره إذا كان البيت فارغاً أنه لا يلزم السلام، فإنه إذا كان المقصود الملك فالملائكة لا تفارق العبد بحال، أما إنه إذا دخلت بيتك يستحب لك ذكر الله^(٢).

وقال الطبري: «أولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال معناه: فإذا دخلتم

بيوتاً من بيوت المسلمين، فليسلم بعضكم على بعض، وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب لأن الله جل ثناؤه قال: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا﴾ ولم يخص من ذلك بيتاً دون بيت، وقال: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ يعني: بعضكم على بعض، فكان معلوماً إذ لم يخص ذلك على بعض البيوت دون بعض، أنه معني به جميعها، مساجدها وغير مساجدها، وقوله: ﴿تَحِيَّةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾، بمعنى: تحيون أنفسكم تحية من عند الله السلام تحية فكأنه قال: فليحي بعضكم بعضاً تحية من عند الله، ووصف جل ثناؤه هذه التحية المباركة الطيبة لما فيها من الأجر الجزيل والثواب العظيم^(٣).

٤. دعاء دخول البيت.

ومن آداب دخول البيت: أن يقول الداخل الدعاء الوارد في حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا ولج الرجل بيته فليقل: اللهم إني أسألك خير المولج، وخير المخرج، بسم الله ولجنا، وبسم الله خرجنا وعلى الله ربنا توكلنا، ثم ليسلم على أهله)^(٤).

(٣) جامع البيان ١٩/٢٢٧.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب ما يقول الرجل إذا دخل بيته، رقم ٥٠٩٦، ٣٢٥/٤.

والمحدث صححه الألباني في صحيح الجامع

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک، رقم ٣٥١٤، ٤٣٤/٢.

قال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ولم يتعقبه الذهبي.

(٢) أحكام القرآن ٣/٤٢٦.

٥. السواك.

فعن المقدام بن شريح، عن أبيه، قال: سألت عائشة، قلت: بأي شيء كان يبدأ النبي صلى الله عليه وسلم إذا دخل بيته؟ قالت: (بالسواك)^(١).

أما آداب دخول مساكن الجن مبسطة في السنة فليرجع إليها.

[انظر: الاستئذان: الاستئذان لدخول بيوت الآخرين]

البيوت والفتنة

إن البيوت والفتنة في القرآن الكريم تتمثل في: الاغترار بالبيوت، وأنها سبب للفرار من الجهاد، والبيت قد يكون مكاناً للخلوة بالنساء، وما يظن المنافقون من أن البيوت تمنع الموت، وبيان ذلك في النقاط الآتية:

أولاً: الاغترار بالبيوت:

من الفتنة بالبيوت الاغترار بها، وهي من صفات الكافرين.

قال تعالى: ﴿وَتَنَحَّثُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرَهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩].

أي: وتتخذون تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشراً وبطراً من غير حاجة إلى سكناها مع الجد والاهتمام في بنائها^(٢).

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَتَنَحَّثُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرَهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩].

قال ابن عباس وغير واحد: يعني: حاذقين، وفي رواية عنه: شريين أشريين، وهو اختيار مجاهد وجماعة، ولا منافاة بينهما، فإنهم كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشراً وبطراً وعبثاً من غير حاجة إلى سكناها، وكانوا حاذقين متقنين لنحتها ونقشها، كما هو المشاهد من

الصغير وزيادته، رقم ٨٣٩، ١/٢٠٦.
(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب السواك، رقم ٢٥٣، ١/٢٢٠.
(٢) تفسير المراغي ١٩/٩١.

فُصُورًا وَنَتَجُونَ الْجِبَالَ يُّوتًا فَاذْكُرُوا
ءَالَآءَ اللَّهِ وَلَا تَمُوتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾

[الأعراف: ٧٤].

وذلك؛ لأن بناء البيوت وتشيد القصور ونحت الجبال بيوتًا من النعم التي تستوجب الشكر، فقد ذكر صالح عليه السلام قومه بما أنعم الله به عليهم، وهي جعلهم خلفاء بعد الأمة التي سبقتهم، وما اختصوا به من اتخاذ القصور من السهول ونحت الجبال بيوتًا، ثم طلب منهم شكر هذه النعم بقوله: ﴿فَاذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ﴾ (٤)، أي: نعمه عليكم لتصرفوها إلى ما خلقها لأجله ولا تعثوا في الأرض مفسدين بالمعاصي وعبادة غيره تعالى (٥).

ثانيًا: سبب للفرار من الجهاد:

بين الله سبحانه وتعالى أن البيوت فتنة للمنافقين وسبب للفرار من الجهاد، قال تعالى: ﴿وَلَوْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَأْتِ أَهْلَ يَرْبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣].

فقد ذكر الله تعالى أن المنافقين يحرضون بعض المجاهدين على ترك الجهاد والرجوع

حالهم لمن رأى منازلهم (١).

والاغترار بالبيوت يؤدي إلى الأمن المذموم في قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٢].

فقد كان أصحاب الحجر، وهم ثمود قوم صالح، ينحتون من الجبال بيوتًا آمنين من عذاب الله، وقيل: آمنين من الخراب أن تخرب بيوتهم التي نحتوها من الجبال، وقيل: آمنين من الموت (٢).

قال ابن عطية: «وقوله ﴿ءَامِنِينَ﴾: قيل: معناه: من انهدامها، وقيل: من حوادث الدنيا، وقيل: من الموت لاغترارهم بطول الأعمال، قال القاضي أبو محمد ابن عطية: وهذا كله ضعيف، وأصح ما يظهر في ذلك أنهم كانوا يأمنون عواقب الآخرة. فكانوا لا يعملون بحسبها، بل كانوا يعملون بحسب الأمن منها» (٣).

كما أن الاغترار بالبيوت يؤدي أيضًا إلى كفران النعم والفساد في الأرض، كما قال تعالى عن قوم صالح عليه السلام: ﴿وَإِذْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ خُلَفَاءُ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَخَذُونَ مِنْ سُهُولِهَا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٤٠.

وانظر: الوسيط، الواحدي ٣/ ٣٦٠، لباب التأويل، الخازن ٣/ ٣٣٠، مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٥٧٦.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٧/ ١٢٧.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٢.

(٤) البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٩٣.

(٥) محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ١٢٧.

وانظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٠٦،

مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣٠٦.

إلى بيوتهم، بل إن بعضهم جعل البيوت سبباً للفرار من الجهاد، والمعنى: لا مقام لكم أي: هاهنا يعنون عند النبي صلى الله عليه وسلم في مقام المراقبة، فارجعوا أي: إلى بيوتكم ومنازلكم^(١).

ويستأذن بعضهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في الإذن بالانصراف عنه إلى منزله، ولكنه يريد الفرار والهرب من عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكذبهم الله تعالى وأعلم أن قصدهم الهرب والفرار، لضعف إيمانهم، وجبن نفوسهم^(٢).

ثالثاً: البيت قد يكون مكاناً للخلوة:

من فتنه البيوت ما يقع فيها من خلوة محضورة بالنساء وقد صور الله تعالى فتنه البيوت هذه بقوله: ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْت لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾^(٣) [يوسف: ٢٣].

يخبر تعالى عن امرأة العزيز التي كان يوسف في بيتها بمصر، وقد أوصاها زوجها به وياكرامه، فراودته عن نفسه، أي: حاولته على نفسه ودعته إليها، وذلك أنها أحبته حباً شديداً لجمالته وحسنه وبهائه، فحملها ذلك

على أن تجملت له وغلقت عليه الأبواب ودعته إلى نفسها، وقالت: هيت لك، فامتنع من ذلك أشد الامتناع، و﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ وكانوا يطلقون الرب على السيد الكبير، أي: إن بعلك ربي أحسن مثواي أي: منزلي، وأحسن إلي فلا أقابله بالفاحشة في أهله ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾^(٣).

والتعبير عن امرأة العزيز بطريق الموصولية في قوله: ﴿الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ لقصد ما تؤذن به الصلة من تقرير عصمة يوسف صلى الله عليه وسلم لأن كونه في بيتها من شأنه أن يطوعه لمرادها، وبيتها بيت سكنها الذي تبيت فيه، فمعنى هو في بيتها أنه كان حيثنذ في البيت الذي هي به، ويجوز أن يكون المراد بالبيت: المنزل كله، وهو قصر العزيز، ومنه قولهم: ربة البيت، أي: زوجة صاحب الدار، ويكون معنى هو في بيتها أنه من جملة أتباع ذلك المنزل^(٤).

ولمنع هذه الفتنة فقد حرم النبي صلى الله عليه وسلم الدخول على النساء، وذلك فيما رواه عقبة بن عامر رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ياكم والدخول على النساء) فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله، أفرأيت الحموم؟

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/٣٤٨.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/٢٢٦، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/٢١٩، الوسيط، طنطاوي ١١/١٨٤.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/٣٢٥.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/٢٥٠.

قال: (الحمو الموت)^(١).

والحمو أخو الزوج وما أشبهه من أقارب الزوج ابن العم ونحوه، اتفق أهل اللغة على أن الاحماء أقارب زوج المرأة كأبيه وعمه وأخيه وابن أخيه وابن عمه ونحوهم، والأختان أقارب زوجة الرجل والأصهار يقع على النوعين، وأما قوله صلى الله عليه وسلم: الحمو الموت، فمعناه: أن الخوف منه أكثر من غيره، والشر يتوقع منه، والفتنة أكثر لتمكنه من الوصول إلى المرأة والخلو من غير أن ينكر عليه بخلاف الأجنبي، والمراد بالحمو هنا: أقارب الزوج غير آبائه وأبنائه فأما الآباء والأبناء فمحارم لزوجته تجوز لهم الخلو بها ولا يوصفون بالموت وإنما المراد: الأخ وابن الأخ والعم وابنه ونحوهم ممن ليس بمحرم وعادة الناس

المساهلة فيه ويخلو بامرأة أخيه، فهذا هو الموت وهو أولى بالمنع من الأجنبي^(٢). وكذلك ما رواه جابر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ألا لا يبيت رجل عند امرأة ثيب، إلا أن

يكون ناكحًا أو ذا محرم)^(٣).

قال الإمام النووي: «ومعناه: لا يبيت رجل عند امرأة إلا زوجها أو محرم لها، قال العلماء: إنما خص الثيب لكونها التي يدخل إليها غالبًا، وأما البكر فمحصنة متحصنة في العادة مجانبة للرجال أشد مجانبية، فلم يحتج إلى ذكرها؛ ولأنه من باب التنبيه؛ لأنه إذا نهى عن الثيب التي يتساهل الناس في الدخول عليها في العادة، فالبكر أولى، وفي هذا الحديث تحريم الخلو بالأجنبية وإباحة الخلو بمحارمها، وهذان الأمران مجمع عليهما^(٤).

رابعًا: البيوت لا تمنع الموت:

إن البيوت لا تمنع الموت.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَدْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نَسَا يَفْشُونَ طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم، والدخول على المغيبة، رقم ٥٢٣٢، ٣٧/٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب تحريم الخلو بالأجنبية والدخول عليها، رقم ٢١٧٢، ٤/١٧١١.

(٢) شرح صحيح مسلم ١٤/١٥٤.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب تحريم الخلو بالأجنبية والدخول عليها، رقم ٤/١٧١٠، ٢١٧١.

(٤) شرح صحيح مسلم ١٤/١٥٣.

وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ يَدَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ [آل

عمران: ١٥٤].

قال أبو جعفر الطبري: «يعني بذلك جل ثناؤه: قل، يا محمد، للذين وصفت لك صفتهم من المنافقين: لو كنتم في بيوتكم لم تشهدوا مع المؤمنين مشهدهم، ولم تحضروا معهم حرب أعدائهم من المشركين، فيظهر للمؤمنين ما كنتم تخفونه من نفاقكم، وتكتمونه من شككم في دينكم ﴿لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ﴾، أي: لظهر للموضع الذي كتب عليه مصرعه فيه، من قد كتب عليه القتل منهم، ولخرج من بيته إليه حتى يصرع في الموضع الذي كتب عليه أن يصرع فيه»^(١).

﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ أي: لخرج الذين قدر الله عليهم القتل وكتبه في اللوح المحفوظ إلى مصارعهم ولم تنفعهم الإقامة بالمدينة ولم ينج منهم أحد، فإنه قدر الأمور ودبرها في سابق قضائه لا معقب لحكمه. ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ يَدَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل

عمران: ١٥٤].

أي: وليمتحن ما في صدوركم ويظهر سرائرها من الإخلاص والنفاق، ﴿وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾، أي: وليكشفه

ويميزه أو يخلصه من الوسوس.

﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ يَدَاتِ الصُّدُورِ﴾ بخفياتها

قبل إظهارها، وفيه وعد ووعد وتنبيه على أنه غني عن الابتلاء، وإنما فعل ذلك لتمرين المؤمنين وإظهار حال المنافقين^(٢).

والخلاصة: إن الحذر لا يدفع القدر، والتدبير لا يقاوم التقدير فالذين قدر عليهم القتل لا بد أن يقتلوا على كل حال، وإلا انقلب علم الله جهلاً، فقتل من قتل إنما جاء لانتها آجالهم كما قدر ذلك في اللوح المحفوظ، وكتب مع ذلك أنهم هم الغالبون، وأن العاقبة لهم، وأن دين الإسلام سيظهر على الدين كله.

وفي هذا ترغيب وترهيب، وتنبيه إلى أن الله غني عن الابتلاء والامتحان، وإنما يظهر ذلك على هذه الصورة لحكم يعلمها كمران المؤمنين على الصبر وتحمل المشاق وإظهار حال المنافقين؛ لأن الحقائق قد تخفى على أربابها، فينخدعون للشعور العارض بدون تمحيص ولا ابتلاء، كما انخدع الذين تمنوا الموت من قبل أن يلقيه^(٣).

(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٤٤.

(٣) تفسير المراغي ٤/ ١٠٥.

(١) جامع البيان، الطبري ٧/ ٣٢٤.

البيوت والعذاب

ذكر القرآن الكريم البيوت والعذاب على صور مثل: خراب البيوت وخوائها، وترك بعضها آية وعبرة، وبيان ذلك في النقاط الآتية:

أولاً: خراب البيوت:

ذكر الله تعالى خراب البيوت في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَلْتَنَّهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يحتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا بِأَوَّلِ الْآبَصْرِ ۝١﴾ [الحشر: ٢٠].

والمعنى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ أي: في أول حشرهم من جزيرة العرب إذ لم يصيبهم هذا الذل قبل ذلك، أو في أول حشرهم للقتال أو الجلاء إلى الشام، وآخر حشرهم إجلاء عمر رضي الله عنه تعالى عنه إياهم من خيبر إليه، أو في أول حشر الناس إلى الشام وآخر حشرهم أنهم يحشرون إليه عند قيام الساعة فيدرکہم هناك، أو أن نازًا تخرج من المشرق فتحشرهم إلى المغرب، والحشر إخراج جمع من مكان إلى آخر، ﴿مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا﴾ لشدة بأسهم ومنعتهم، ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ﴾

مِنَ اللَّهِ ۝١ أي: أن حصونهم تمنعهم من بأس الله، وتغيير النظم وتقديم الخبر وإسناد الجملة إلى ضميرهم للدلالة على فرط وثوقهم بحصانتها واعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة بسببها، ويجوز أن تكون حصونهم فاعلاً لـ ﴿مَانِعَتُهُمْ﴾، ﴿فَأَلْتَنَّهُمْ اللَّهُ ۝١ أي: عذابه، وهو الرعب والاضطرار إلى الجلاء، ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يحتَسِبُوا﴾ لقوة وثوقهم، ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ وأثبت فيها الخوف الذي يربعها أي: يملؤها، ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ﴾ ضناً بها على المسلمين وإخراجاً لما استحسبوا من آلائها، ﴿وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فإنهم أيضاً كانوا يخربون ظواهرها نكاية وتوسيعاً لمجال القتال، وعطفها على «أيديهم» من حيث إن تخريب المؤمنين مسبب عن نقضهم، فكانهم استعملوهم فيه^(١).

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعني: يهود بني النضير، قاله ابن عباس ومجاهد والزهري وغير واحد: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة هادئهم وأعطاهم عهداً وذمة على أن لا يقاتلهم ولا يقتلوه، فنقضوا العهد الذي كان بينهم وبينه، فأحل الله بهم بأسه الذي لا مرد له، وأنزل عليهم قضاءه الذي لا يصد، فأجلاهم النبي صلى

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ١٩٨/٥.

الكون^(٣).

«خاوية» أي: ساقطة متهدمة، لا أثر لحياة فيها.. والإشارة هنا، لفت للأنظار إلى هذه الديار الخاوية، حيث ينظر المشركون إلى حيث متجه الإشارة، فلا يرون إلا أطلالاً، يرى فيها أولو العلم وأهل النظر، آية من آيات الله، فيما يحل بالظالمين من بأسه، وما يرميهم به من عذابه^(٤).

وقد اشتملت هذه الآيات الكريمة، ثلاثة أمور:

الأول: أنه دمر جميع قوم صالح، ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ﴾، أي: خالية من السكان لهلاك جميع أهلها، ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾، أي: بسبب ظلمهم الذي هو كفرهم وتمردهم وقتلهم ناقة الله التي جعلها آية لهم، وقال بعضهم: خاوية، أي: ساقطاً أعلاها على أسفلها.

الثاني: أنه جل وعلا جعل إهلاكه قوم صالح آية، أي: عبرة يتعظ بها من بعدهم، فيحذر من الكفر، وتكذيب الرسل، لئلا ينزل به ما نزل بهم من التدمير، وذلك في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

الثالث: أنه تعالى أنجى الذين آمنوا وكانوا يتقون من الهلاك والعذاب، وهو نبي الله صالح عليه السلام ومن آمن به من

الله عليه وسلم وأخرجهم من حصونهم الحصينة التي ما طمع فيها المسلمون وظنوا هم أنها مانعتهم من بأس الله، فما أغنى عنهم من الله شيئاً وجاءهم من الله ما لم يكن ببالهم، ولهذا قال تعالى: ﴿يُؤْتِيهِمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا بِآيَةِ الْآبَصِرِ﴾ أي: تفكروا في عاقبة من خالف أمر الله وخالف رسوله، وكذب كتابه كيف يحل به من بأسه المخزي له في الدنيا مع ما يدخره له في الآخرة من العذاب الأليم^(١).

ثانياً: خواء البيوت:

إن خواء البيوت من العذاب الواقع عليها قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٥٢].

أي: فتلك مساكنهم خاوية خالية منهم، ليس فيها منهم أحد، قد أهلكهم الله فأبادهم بسبب ظلمهم أنفسهم بشركهم بالله وتكذيبهم رسولهم^(٢).

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: أن في فعلنا بشمود ما قصصناه عليك لعظة لمن كان من أولي المعرفة والعلم، فيعلم ارتباط الأسباب بمسبباتها، والنتائج بمقدماتها بحسب السنن التي وضعت في

(٣) انظر: تفسير المراغي ١٩/١٤٩.

(٤) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٠/٢٥٦.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/٨٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/٤٨٠.

[آل عمران: ١٨٠] (٣).

قال ابن عباس رضي الله عنه: في قوله: ﴿فَإِنَّكَ مَسْكَنُهُمْ لَا تُسْكِنُ مِنْ بَعْدِهِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [القصص: ٥٨].

لم يسكنها إلا المسافرون، وماروا الطرق يوماً أو ساعة. والمعنى: لم تسكن من بعدهم إلا سكوتاً قليلاً، ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥٨].

يعني: لم يخلفهم أحد بعد هلاكهم في منازلهم، فبقيت خراباً غير مسكونة، كقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠] (٤).

فقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ أي: رجعت خراباً ليس فيها أحد (٥).

ونحو الآية قوله تعالى: ﴿فَمَا وَحَدَّا فِيهَا حَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [الذاريات: ٣٦-٣٧].

والمعنى: وتركنا في القرية المذكورة، وهي سدوم أثراً من العذاب باقياً مؤرخاً لا يفنى ذكره فهو: آية أي: علامة على قدرة الله وانتقامه من الكفرة، ويحتمل أن يكون، المعنى: وتركنا في أمرها، كما قال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْسَّائِلِينَ﴾

قومه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنبَيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [النمل: ٥٣] (١).

ثالثاً: ترك بعضها آية وعبرة:

ترك الله تعالى بعض البيوت التي وقع عليها العذاب آية وعبرة: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَإِنَّكَ مَسْكَنُهُمْ لَا تُسْكِنُ مِنْ بَعْدِهِ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥٨].

فتلك دور القوم الذين أهلكتناهم بكفرهم بربهم، ومنازلهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً يقول: خربت من بعدهم، فلم يعمر منها إلا أفلها، وأكثرها خراب. ولفظ الكلام وإن كان خارجاً على أن مساكنهم قد سكنت قليلاً فإن معناه: فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً منها، كما يقال: قضيت حقلك إلا قليلاً منه (٢).

والمعنى: ﴿فَإِنَّكَ مَسْكَنُهُمْ لَا تُسْكِنُ مِنْ بَعْدِهِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعني: فلم يعمر منها إلا أفلها، وأكثرها خراب، قال ابن عباس رضي الله عنه: لم يسكنها إلا المسافر ومار الطريق يوماً أو ساعة ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ نظيره قوله سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

(٣) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٢٥٦/٧.

(٤) انظر: الوسيط، الواحدي ٤٠٤/٣.

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢٢٣/٦.

(١) انظر: أضواء البيان، الشنيطي ١٢٠/٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٦٠٣/١٩.

النساء والبيوت

ذكر القرآن الكريم النساء والبيوت في موضوعات تتعلق بهن مثل: القرار في البيوت، والتعلم والتعليم فيها، وفي لزوم البيوت في قضاء العدة، والحبس في البيوت عند ارتكاب الفاحشة، وبيان ذلك فيما يأتي:

أولاً: القرار في البيوت:

قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

هذه آداب أمر الله تعالى بها نساء النبي صلى الله عليه وسلم ونساء الأمة تبع لهن في ذلك، وذلك فيما يأتي:

١. القرار في البيوت.

قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ أي: الزمن فلا تخرجن لغير حاجة، ومن الحوائج الشرعية الصلاة في المسجد بشرطه، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تمنعوا إماء الله مساجد الله، وليخرجن وهن تفلات) (٤).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب هل على من لم يشهد الجمعة غسل من النساء والصبيان وغيرهم؟، رقم ٩٠٠، ٦/٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب خروج النساء إلى المساجد إذا لم يترتب

﴿٧﴾ [يوسف: ٧] (١).

وقوله تعالى: ﴿وَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [الذاريات: ٣٧].

أي: جعلناها عبرة لما أنزلنا بهم من العذاب والنكال وحجارة السجيل، وجعلنا محلثهم بحيرة متنتة خبيثة، ففي ذلك عبرة للمؤمنين الذين يخافون العذاب الأليم (٢).

وقد عقب الله تعالى على الآيات الواردة في عذاب البيوت بأن جعلها عبرة وعظة للمعتبرين، ففي قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَنزَلْنَاهُمْ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا بِأَوَّلِ الْآبَصْرِ﴾ [الحشر: ٢].

أي: تفكروا في عاقبة من خالف أمر الله وخالف رسوله وكذب كتابه كيف يحل به من بأسه المخزي له في الدنيا مع ما يدخره له في الآخرة من العذاب الأليم.

﴿فَاعْتَبِرُوا بِأَوَّلِ الْآبَصْرِ﴾ أي: تفكروا في عاقبة من خالف أمر الله وخالف رسوله وكذب كتابه كيف يحل به من بأسه المخزي له في الدنيا مع ما يدخره له في الآخرة من العذاب الأليم (٣).

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ١٧٩.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣٩٤.

(٣) انظر: المصدر السابق ٨/ ٨٦.

وفي رواية (وبيوتهن خير لهن) (١)(٢).

ولهذا كانت الدعوة إليهن بالقرار في البيوت مقترنة بالدعوة بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة وإطاعة الله ورسوله، فهذا هو دأبهن في الحياة.. الاتجاه إلى الله، والعمل لما يرضي الله، ورسول الله صلى الله عليه وسلم (٣).

وخص تعالى الصلاة والزكاة، لأهميتهما وخطورتهما وآثارهما الكبرى، فالأولى طهارة النفس وعماد الدين، والثانية طهارة المال وطريق مقاومة الفقر، فهما عمودا الطاعة البدنية والمالية (٤).

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ قرئت على وجهين: فقرأ المدنيان، وعاصم بفتح القاف، وقرأ الباقون بكسرها (٥).

عليه فتنه، وأنها لا تخرج مطيبة، رقم ٤٤٢، ٣٢٧/١.

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٥٤٦٨، ٣٣٧/٩، وأبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب ما جاء في خروج النساء إلى المسجد، رقم ٥٦٧١/١٥٥، والحاكم في مستدركه، رقم ٣٢٧/١، ٧٥٥.

والحديث صححه الحاكم، والألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته رقم ٧٤٥٨، ١٢٤٢/٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/٣٦٣.

(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١١/٧٠٦.

(٤) التفسير المنير، الزحيلي ٢٢/١٠.

(٥) انظر: النشر في القراءات العشر، ابن الجزري ٣٤٨/٢.

فأما القراءة الأولى فتحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون من الوقار، تقول: وقر يقر وقارًا أي: سكن، وتأويلها كن أهل وقار وسكينة.

والوجه الثاني: أن يكون من القرار، تقول: قررت بالمكان (بفتح الراء) وأما قراءة أهل المدينة وعاصم، فعلى لغة العرب: قررت في المكان إذا أقمت فيه (٦).

ومعنى هذه الآية: الأمر بلزوم البيت، وإن كان الخطاب لثناء النبي صلى الله عليه وسلم فقد دخل غيرهن فيه بالمعنى، هذا لو لم يرد دليل يخص جميع النساء، كيف والشرعة طافحة بلزوم النساء بيوتهن، والانكفاف عن الخروج منها إلا لضرورة، فأمر الله تعالى نساء النبي صلى الله عليه وسلم بملازمة بيوتهن، وخاطبهن بذلك تشريعاً لهن (٧).

وبهذا تكون الآية قد طلبت من النساء القرار في البيوت والإقامة فيها مع لزوم السكينة والوقار في أقوالهن وأفعالهن عملاً بالقراءتين.

٢. النهي عن التبرج.

وهو: إظهار الزينة، وإبراز المرأة محاسنها للرجال (٨).

(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/١٧٨.

(٧) انظر: المصدر السابق ١٤/١٧٩.

(٨) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/٢٦٠.

قال ابن عاشور: «والجاهلية: المدة التي كانت عليها العرب قبل الإسلام والجاهلية نسبة إلى الجاهل؛ لأن الناس الذين عاشوا فيها كانوا جاهلين بالله وبالشرائع، ووصفها بـ(الأولى) وصف كاشف؛ لأنها أولى قبل الإسلام، وجاء الإسلام بعدها ومن المفسرين من جعلوه وصفاً مقيداً، وجعلوا الجاهلية جاهليتين، فمنهم من قال: الأولى هي: ما قبل الإسلام، وستكون الجاهلية أخرى بعد الإسلام يعني: حين ترتفع أحكام الإسلام والعياذ بالله، ومنهم من قال: الجاهلية الأولى هي القديمة من عهد ما قبل إبراهيم عليه السلام ولم يكن للنساء وازع ولا للرجال، ووضعوا حكايات في ذلك مختلفة أو مبالغاً فيها أو في عمومها، وكل ذلك تكلف دعاهم إليه حمل الوصف على قصد التقيد»^(٤).

ثانياً: التعلم والتعليم:

دل قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَشَاءُ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٤].
على التعلم والتعليم للنساء أنه يكون في البيوت.

يقول تعالى ذكره لأزواج نبيه محمد صلى الله عليه وسلم: واذكرن نعمة الله عليكم؛

قال الشوكاني: التبرج: «أن تبدي المرأة من زينتها ومحاسنها ما يجب عليها ستره، مما تستدعي به شهوة الرجل»^(١).
والمقصود من الآية: مخالفة من قبلهن من المشية على تغنيج وتكسير وإظهار المحاسن للرجال، إلى غير ذلك مما لا يجوز شرعاً، وذلك يشمل الأقوال كلها ويعمها فيلزم البيوت، فإن مست الحاجة إلى الخروج فليكن على تبدل وتستر تام^(٢).
والجاهلية الأولى هي: القديمة التي يقال لها: الجاهلية الجاهلاء، وهي الزمن الذي ولد فيه إبراهيم عليه السلام: كانت المرأة تلبس الدرع من اللؤلؤ فتمشى وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال، وقيل: ما بين آدم ونوح عليهما الصلاة والسلام، وقيل: بين إدريس ونوح عليهما الصلاة والسلام، وقيل: زمن داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام والجاهلية الأخرى: ما بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، ويجوز أن تكون الجاهلية الأولى: جاهلية الكفر قبل الإسلام، والجاهلية الأخرى: جاهلية الفسوق والفجور في الإسلام، فكان المعنى: ولا تحدثن بالتبرج جاهلية في الإسلام تشبهن بها بأهل جاهلية الكفر^(٣).

(١) فتح القدير ٤/ ٣٢٠.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ١٨٠.

(٣) انظر: الكشف، الزمخشري ٣/ ٥٣٧.

(٤) التحرير والتنوير ٢٢/ ١٣.

ثالثاً: العدة:

نهى الله تعالى الرجال عن إخراج المطلقات من البيوت، كما نهى المطلقات عن الخروج باختيارهن.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تَخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحْشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ۝١﴾ [الطلاق: ١].

والمعنى: لا تخرجوهن من بيوتهن، ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ أي: لا تخرجوا المطلقات من بيوتهن في مدة العدة، فلكل امرأة معتدة حق السكنى على الزوج، ما دامت معتدة منه، فليس للرجل أن يخرجها، ولا يجوز لها أيضاً الخروج، فليس للمعتدات الزوجات الخروج من تلك البيوت ما دمن في العدة إلا لأمر ضروري، رعاية لحق الزوج، فإذا خرجت المعتدة لغير ضرورة ليلاً أو نهاراً، كان الخروج حراماً.

وفيه دليل على وجوب السكنى للزوجات المطلقات أو المعتدات ما دمن في العدة، وأضاف البيوت إليهن، وهي لأزواجهن لتأكيد النهي عن الإخراج والخروج، ببيان كمال استحقاقهن للسكنى،

بأن جعلكن في بيوت تتلى فيها آيات الله والحكمة، فاشكرن الله على ذلك، واحمدنه عليه، وعني بقوله ﴿وَأَذْكُرْ مَا يَمُنُّ لَكُمْ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾: واذكرن ما يقرأ في بيوتكن من آيات كتاب الله والحكمة، ويعني بالحكمة: ما أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحكام دين الله، ولم ينزل به قرآن، وذلك السنة^(١).

ولفظ (الذكر) هنا يحتمل مقصدين كلاهما موعظة وتعيد نعمة: أحدهما: أن يريد ﴿وَأَذْكُرْ﴾، أي: تذكرنه واقدرنه قدره وفكرن في أن من هذه حاله ينبغي أن تحسن أفعاله، والآخر: أن يريد ﴿وَأَذْكُرْ﴾ بمعنى: احفظن واقرأن والزمنه الألسنة، فكأنه يقول: واحفظوا أوامر الله ونواهيها، وذلك هو الذي يتلى في بيوتكن من آيات الله، وذلك مؤد بكن إلى الاستقامة^(٢).

وهذا حث لهن على حفظ القرآن والأخبار، ومذاكرتهن بهما للإحاطة بحدود الشريعة، والخطاب وإن اختص بهن فغيرهن داخل منه؛ لأن مبنى الشريعة على هذين القرآن والسنة، وبهما يؤقت على حدود الله ومفترضاته ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَتْ لَطِيفًا﴾ بأوليائه، ﴿خَيْرًا﴾ بجميع خلقه^(٣).

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢٦٧.

(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٨٤.

(٣) انظر: الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٧٠.

كانها ملك لهن^(١).

أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ [النساء: ١٥].

قال ابن كثير: «كان الحكم في ابتداء الإسلام أن المرأة إذا ثبت زناها بالبيينة العادلة، حبست في بيت فلا تمكن من الخروج منه إلى أن تموت، ولهذا قال ﴿وَالَّتِي يَأْتِيكِ الْفَحِشَةُ﴾ يعني: الزنا من نسائككم ﴿فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَزْوَاجَ مَنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥].

فالسبيل الذي جعله الله هو الناسخ لذلك، قال ابن عباس رضي الله عنه: كان الحكم كذلك حتى أنزل الله سورة النور فنسخها بالجلد أو الرجم، وكذا روي عن عكرمة، وسعيد بن جبيرة والحسن وعطاء الخراساني وأبي صالح وقتادة وزيد بن أسلم والضحاك: أنها منسوخة، وهو أمر متفق عليه^(٣).

قال الرازي: «واعلم أنه كان في أول الإسلام عقوبة الزاني الحبس إلى الممات في حق الثيب، والأذى بالكلام في حق البكر، ثم نسخ ذلك فجعل حد الزنا على الثيب الرجم وحد البكر الجلد والتغريب^(٤)، والحجة عليه: حديث عبادة ابن الصامت رضي الله عنه: (خذوا عني

وقد جعل الله لهن هذا الحق ما لم يأتين بفاحشة، والمعنى: أي لا يخرجن من بيوتهن إلا أن ترتكب المرأة فاحشة مبينة فتخرج من المنزل، والفاحشة المبينة تشمل الزنا، كما قاله ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن المسيب والشعبي، والحسن وابن سيرين ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبيرة وأبو قلابة، وأبو صالح والضحاك وزيد بن أسلم وعطاء الخراساني والسدي وسعيد بن أبي هلال وغيرهم، وتشمل ما إذا نشزت المرأة أو بذت على أهل الرجل وآذتهم في الكلام والفعال، كما قاله أبي بن كعب وابن عباس وعكرمة وغيرهم.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي حُدِّدَ اللَّهُ﴾ أي: شرائعه ومحارمه، ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ أي: يخرج عنها ويتجاوزها إلى غيرها ولا ياتمر بها، فقد ظلم نفسه أي بفعل ذلك^(٢).

رابعاً: الإمساك في البيوت:

كان من حكم النساء اللاتي يأتين بالفاحشة ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَالَّتِي يَأْتِيكِ الْفَحِشَةُ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَزْوَاجَ مَنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٨/ ٢٦٨.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٦٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٢٠٤، وانظر: نواسخ

القرآن لابن الجوزي ٢/ ٣٥٥.

(٤) مفاتيح الغيب ٢٣/ ٣٠٥.

خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً: البكر
بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب
جلد مائة ورجم بالحجارة (١)(٢).

موضوعات ذات صلة:

الاستئذان، بيت النبوة، العذاب، الفتنة

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحدود،
باب حد الزنى، رقم ١٦٩٠، ٣/١٣١٦.
(٢) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ١/٤٠٦.

